تقـــديم

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

منذ بدأت الدراســات العليا في التاريخ الحديث في جامعاتنــا في الثلاثينات من هذا القرن اتجهت العناية الى دراسة تاريخ مصر الحديث وظهرت في هذا المجال دراسات كثيرة تناولت عصــورا او موضــوعات شتى من هذا التاريخ ، وأتيح لكثير منها أن يجد طريقه الى النور فطبع الكثير وان كانت دور النشر او الجامعات لا تزال قاصرة عن ملاحقة كل ما يضعه أبناؤنا في هذا الحقل من دراسات . على أنا نلاحظ أن عصور التاريخ المصري الحديث لم تنل حظا متكافئا من العناية ، فتاريخ مصر في القرن التاســع عشر ، ثم تاريخ مصر منذ ثورة ١٩١٩ قــد نالا من اهتمام أبنائنا من الباحثين قدرا أكبر مما نالته الفترة الممتدة من أوائل القرن العشرين حتى ثورة ١٩١٩ . ولعل السبب في هذا راجع الى أن القرن التاسع عشر كان عصر التغيير الكبير في المجتمع المصري في شتى نواحيه ، فتطورت علاقة مصر بالدولة العثمانية وبدول أوربا الغربيــة الى نحو أوقعها في النهاية تحت وطأة الاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢ ، فجاء هذا القرن حافلا بالموضوعات الهامة ، كالثورة الوطنيــة المعروفة بالثورة العرابية ، ثم عصر الاحتلال ، فكان حافزا لأبنائنا ومشوقا لهم الى الاهتمام بدراسة هذا القرن وما اشتمل عليه من تطورات خطيرة في تاريخ البلاد ، أما العصر الآخر الذي حظي بقــدر لا يقل من اهتمام طلابنا ونعني به العصر الممتد من ثورة الشعب عام ١٩١٩ حتى قيــام ثورة يولية ١٩٥٢ فكان هو الآخر حافزا ومشــجعا لعدد كبير من أبنائنا على الاهتمام بدراسته فهو يشتمل على موضوعات تبعث على الاهتمام كالثورة والحركة الوطنية ومحاولة تسوية العلاقات المصرية البريطانية وقيام الأحزاب والحياة البرلمانية ... الخ .

أما الفترة الممتدة من أوائل القرن العشرين الى ثورة ١٩١٩ فانها ـ فى رأينا ـ لم تنل حظا كبيرا من العناية وهى لا تزال بحاجة الى دراسات شتى ، وربما كان السبب فى هذا القدر من الاهمال الذى شاب هذا العصر هو الحركة والتغيير الكبير الذى صحب العصر السابق والعصر اللاحق لهذه الفترة ولهذا يمكن أن نقول أن هذه الفترة (سقطت) من اهتمام الباحثين ، رغم أنها لا تقل أهمية عن العصر الذى سبقها أو الذى لحقها ، ففيها تبلورت مؤثرات العصر الأول ، كما كانت تمهيدا طبيعيا للعصر اللاحق ، لهذا كان من الخير أن وجه فريق من أبنائنا طلاب الماجستير والدكتوراه ـ بتوجيه من أساتذتهم ـ اهتمامهم الى دراسة هذه الفترة ، ففى جامعة عين شمس فى السنوات الأخيرة أتم عدد من الطلاب بحوثهم فى موضوعات مختلفة من هذه الفترة وخاصة ما يتصل منها بالحركة الوطنية أو الحياة الحزبية وهما السمتان البارزتان فى تاريخ هذه الفترة .

واليوم يسرنى أن أقدم لجمهور القارئين هذا البحث الذى تناول بالتأريخ حزبا كبيرا من بين الأحزاب التى قامت فى تلك الفترة وهو « حزب الأمة » ، وصاحب هذا البحث هو أحمد زكريا المدرس المساعد بآداب عين شمس ، وهذا الكتاب هو باكورة أعماله العلمية التى تنبىء بمستقبل باهر فى حقل الدراسات التاريخية الحديثة . ولا أود أن أسبق المؤلف الى عقول قرائه فأحدثهم عن الموضوعات التى تناولها الكتاب بالبحث ، كنشأة الحزب مرتبطا بصحيفة « الجريدة » لمؤسسها أحمد لطفى السيد ، ثم تأسيس الحزب مع تحليل اجتماعى على جانب كبير من الطرافة لمؤسسى الحزب وأنصاره ثم مواقف الحزب المختلفة من القضايا السياسية والاجتماعية والفكرية التى زخرت بها هذه الفترة من تاريخنا كعلاقة مصر بالدولة العثمانية وسلطة الخديوى ، والدستور ، ومدافعة الاحتلال البريطانى والدعوة الى فكرة (القومية المصرية) ووضعها فى مكانها الصحيح من الناحيتين النظرية والعملية وموقف الحزب من الأحزاب الأخرى .. الخ . وهذه كلها موضوعات سيرى القارىء أن

أحمد زكريا قد جمع مادتها من مصادرها الأصلية وعرضها فى منهج علمى سليم وأسلوب جلى واضح وبذل فى ذلك كله جهدا استحق أن يمنح عليه درجة الماجستير فى التاريخ الحديث بتقدير ممتاز عام ١٩٧٧ ، ولقد كان لى حظ الاشراف على هذا البحث وهو اشراف استفدت منه أكثر مما أفدت ، لقد كان الصديق أحمد زكريا طوال فترة بحثه ، وهى لا تقل عن ثلاث سنوات ، مثالا طيبا للباحث المجد الجاد فى عمله والباحث الأمين فى بحثه، ومما يزيد فى غبطتى أنه اختار لدرجة الدكتوراه موضوعا متصلا بحزب الأمة ، وهو حزب الاحرار الدستوريين ، والمؤلف نفسه قد اعترف بهذه الصلة العضوية بين الحزبين فجعل موضوع الفصل الأخير من بحثه « من حزب الأمة الى حزب الاحرار الدستوريين » . واذا كان هذا الحزب قد احتفظ بكثير من العناصر والرجال الذين قام عليهم حزب الأمة ، فانه بحكم تطور الظروف قد عمل فى مجالات أوسع وجابهته قضايا أشد تعقيدا وعاش مع الأحزاب الأخرى فترة أطول مما قدر لحزب الأمة ، واذا كانت آراء الناس لا تزال تتباين حول حزب الأحرار الدستوريين ومواقفه فان أحدا لا ينكر ما كان لهذا الحزب من أثر فى أحداث البلاد منذ قيامه (١٩٢٢) حتى انتهاء مصيره مع الأحزاب الأخرى عام ١٩٥٣ .

وانى أذ أهنىء الصديق أحمد زكريا ببحثه أهنئه بما أتيح له من نشر هذا البحث وأدعو له بالتوفيق بما هو أهل له من التوفيق فى حياته العلمية والعملية .

أحمد عزت عبد الكريم

منشية البكرى — ٢٧ نوفمبر ١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف

يعالج هذا البحث « حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية » فترة جد خصبة وزاخرة من تاريخ مصر الحديثة ، وهى الفترة التى نشأت فيها الأحزاب المصرية عام ١٩٠٧ وحتى اندلاع الحرب العظمى الأولى عام ١٩١٤ تلك الفترة التى كانت ثورة مصر عام ١٩١٩ جنينا فى أحشائها وكانت الحركة الوطنية قد نضجت واستوت على سوقها ، وقد نشأت فكرة هذا البحث من كون الدراسات التاريخية فى تأريخها للحركة السياسية المصرية بشكل عام قد ركزت على الجانب الجماهيرى من هذه الحركة بدءا بالثورة العرابية ومرورا بجماعة مصطفى كامل والحزب الوطنى وحتى تجمع الوفد وسعد زغلول دون اهتمام بالجوانب الاخرى فى الحركة الوطنية وأساليبها وخاصة الجانب المعتدل أو من أسموا أنفسهم « أصحاب المصالح الحقيقية » حيث لم يحظ هذا الجانب بدراسة شاملة برغم اسهامه فى الحركة الوطنية المصرية بشكل أو آخر ، ومن ثم حرصت على تتبع جذور أصحاب هذا الخط السياسى وأصولهم الاجتماعية وبالتالى حركتهم السياسية من محورين رئيسيين:

أولهما : تتبع دور الاعيان وأبنائهم من المثقفين وذوى الوظائف أو « أصحاب المصالح » من حيث نشأتهم وأصولهم الاجتماعية والفكرية ، وحتى انخراطهم فى حزب سياسى يمارسون نشاطهم من خلاله باعتبارهم حزب يعبر عن فئة معينة أو طبقة معينة ، وأثر ذلك على مذهبهم السياسى وأسلوبهم فى العمل الوطنى .

ثانيهما : دراسة الحركة الوطنية فى مصر من جانبها « المعتدل » وغير الجماهيرى فى فترة الاحتلال البريطانى لمصر على ضوء دراسة

شاملة لأول حزب سياسى ــ أعلن عن نفسه ــ بالمعنى الحديث عرفته مصر وهو حزب الأمة •

بالاضافة الى هذا وذاك فان البحث يعرض للمناخ والأصول التى نشأت فيها قيـادات مصر السياسية وزعامتها والتى لعبت دورها فى تاريخ مصر فى الفترة بين عامى ١٩١٩ ، ١٩٥٢ على اعتبار أن اتجاه الحزب قد لعب دورا كبيرا ومؤثرا فى السياسة المصرية فى أعقاب ثورة ١٩١٩ حيث خرج منه « تجمع » الوفد ثم حزب الأحرار الدستوريين ، كما انتشر قادته فى شتى التكوينات الحزبية الاخرى •

وقد تناولت فى الفصلين الاول والثانى مسألة « توصيف الحزب » من خلال دراسة نشأته وبرنامجه ونظامه وأدواته ثم تركيب الحـزب وأصول فئاته الاجتماعية ، أما الفصلان الثالث والرابع فقد تناولا علاقة الحزب بالقوى السياسية المعاصرة له كالخديو والاحتلال البريطانى ، ومن ثم نظرية الحزب فى الاحتلال والجلاء ، وموقع الحزب من الحركة الوطنية المصرية من خلال علاقته بالأحزاب المعاصرة له ، وفى الفصل الخامس عرضت لموقف الحـزب من السيادة العثمانية على مصر وأثر ذلك على فكرة القومية المصرية التى ساهم كتاب الحزب ومفكروه فى تنميتها وابرازها فى مواجهة الشعور العـام المتعاطف مع الجـامعة الاسلامية والذى كان سائدا آنئذ ، أما الفصل السادس فقد تتبع حركة الحزب داخل الهيئات النيـابية أو التمثيلية القائمة ، مع التركيز على موقفه من قضية الديموقراطية والحكم النيابى ، وكذلك موقف الحزب من بعض القضايا العامة المطروحة داخل هذه الهيئات ، بينما تناول الفصل السابع بقية القضايا الفكرية والاصلاحية ، كالتحديث ، والدين والدولة ، والليبرالية الاقتصادية والاشتراكية وغيرها • أما الفصـل الأخير فقـد عالج موقف الحزب من الحماية البريطانيـة على مصر وما ترتب على ذلك من تغيير مركز مصر الدولى وكذلك اجراءات الحرب الاولى مع تحليل لأسباب ومظاهر اضمحلال الحزب وانتهائه ، كحزب

سياسى ، مع الاشارة الى استمرار فكره ومذهبه ورجاله فى القنوات السياسية الجديدة التى تشكلت فى أعقاب الحرب .

وأهم المصادر التى اعتمد عليها البحث تتركز فى مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية المتعلقة بالفترة قيد البحث والمستخرجة من دار المحفوظات العامة بلندن وكذلك ملفات أعضاء الحزب المودعة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة ثم المذكرات غير المنشورة للقادة والزعماء والسياسيين والمودعة بدار الوثائق القومية التاريخية بالقلعة أيضا ، والعديد من المذكرات المنشورة لكثير من الحزبيين والمفكرين والصحافيين ، مما يتضح فى قائمة المصادر ، أما الصحف الحزبية وغير الحزبية ، المعاصرة وغير المعاصرة فقد أفادت البحث فائدة جمة وألقت الضوء على حركة الحزب ونشاطاته اليومية ، كما اعتمد البحث كذلك على العديد من الكتابات المعاصرة للحزب ، والدراسات الحديثة ، بيد أنه من الصعوبات التى صادفت البحث أن الحزب لم تكن له محاضر جلسات مدونة ومنظمة ، على غرار الأحزاب الحديثة ، ربما لأن التجربة الحزبية المصرية آنئذ كانت وليدة ، الأمر الذى جعلنا نعتمد على نتف من هنا وهناك لنحاول استكمال صورة الحزب فى هذا الخصوص .

ويطيب لى أن أعترف بفضل من عاوننى على اخراج هذا البحث ، وخاصة الهيئات العلمية ودور المحفوظات والوثائق والكتب ومراكز الأبحاث ، وأخص بالذكر دار المحفوظات العمومية ودار الوثائق القومية بالقلعة ، ودار الكتب المصرية — وخاصة قسم الدوريات والرصيد ومديره الأستاذ جمال شرف — ومكتبات جامعات القاهرة وعين شمس والأمريكية ومركز تاريخ مصر المعاصر ومركز بحوث الشرق الأوسط ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية والجمعية الجغرافية وجمعية الاقتصاد والتشريع ومعهد البحوث والدراسات العربية العالية .

كما أننى مدين لأساتذتى وزملائى وأصدقائى بقسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، على صادق معاونتهم وتشجيعهم لى ، وأخص

بالذكر أساتذتى وأصدقائى الأستاذ الدكتور عبد الخالق لاشين والأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق والأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، على ما قدموه لى من توجيهات ومصادر علمية ، وكذا الأستاذ الدكتور اسحق عبيد لمساعدتى فى نشر هذا الكتاب . أما أستاذى الجليل الذى تابع معى بمثابرة ودأب هذه الدراسة منذ أن كانت مجرد فكرة ، الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم شيخ مؤرخى مصر ورئيس جامعة عين شمس — سابقا — ومؤسس سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بها ، والذى منحنى من علمه ووقته وجهده الكثير فله منى كل تقدير وعرفان .

وبعد فان كنت قد وفقت فمن الله وان كنت قد قصرت فى شىء فمن نفسى .. والله الموفق ،،

أحمد زكريا الشلق

كفر الحما — طنطا

سبتمبر ١٩٧٩

فصل تمهيدي

الاحتلال البريطاني — السياسة الاقتصادية والخريطة الاجتماعية — الاحتلال والاعيان وابناؤهم — الحركة الوطنية الشيخ محمد عبده وجماعته — الحزبية في مصر .

وطيء الاحتلال البريطاني بقواته ارض مصر وليس ثمة امل في وفائه بوعوده بالجلاء حال اقرار الامر وتثبيت سلطة الخديو . والاطمئنان الى مصالح الدول الأوروبية . طالما لم تكن هناك ضمانات دولية مؤكدة تكفل ذلك . وطالما افتقد المصريون القدرة على إلزامه بالوفاء بتلك الوعود ، فالدول الأوروبية منشغلة بصراعاتها المحلية والدولية ، في الوقت الذي لم يفق فيه المصريون من صدمة احتلال عسكري لبلادهم تحت سمع وبصر الدولة صاحبة السيادة عليهم .

أعاد « ولسلي » النظام في القاهرة . واستدعى « دفرين » لينظم حال البلاد وفقا لمصالح بريطانيا الاستعمارية . وقد حاول هذا أن يقوم بمهمته واضعا نصب عينيه التوفيق بين طول امد سياسة الاصلاح والوعود المبذولة للدول بالجلاء الفوري ، فبدأ بتصفية الثورة واعادة تشكيل الجيش المصري بعد استبعاد من ساهم فيها ، وأوجى بانشاء بوليس تحت اشراف انجليزي وحل المراقبة الثنائية وتعيين مستشار مالي انجليزي . كما اشار بانشاء مجالس تمثيلية لا سلطة لها (١) . كانت تلك سياسة انجلترا المعلنة عشية الاحتلال وهي سياسة تبدو كأنها تحتوي الكثير من حسن النية . وفي الواقع كانت مصر تحكم بقرارات من وزارة الخارجية البريطانية . وانحصرت سلطة حاكمها الشرعي في التصديق على هذه القرارات (٢) ، وسرعان ما سيطر المستشارون الانجليز على معظم الوزارات منفذين تعليمات خارجية بلدهم

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسي ، ص ٢ — ١٠ .

(٢) مذكرات عباس الثاني ، المصري ٤٨٠٠ في ٨ ابريل سنة ١٩٥١ .

بدرجة بات معها الوزير المصرى مكلفا بتنفيذ مشورتهم والا وجب عليه ترك وظيفته ، فكان الوزراء بتوقيعاتهم منفذين لما يأمر به المستشارون الانجليز (٣)، وتوارى كرومر خلف لقبه المتواضع فى الظاهر « المعتمد والقنصل العام » مغتصبا حقوق الخديوى والحكومة (٤) .

وتدريجيا تخلت انجلترا عن دورها كحامية للرجل المريض ، وقد بدأ يحتضر ، وكان من الطبيعى أن يشتد ساعد الحركة الوطنية وقد تفضى الى قيام ثورة فبدا لبريطانيا أن احتلالها لمصر ، مع وعد بالجلاء القريب ، أمر يمكن تسويته دوليا . خاصة وقد علا كعبها فى ميدان التنافس الانجليزى الفرنسى ولعل احتلالها مصر عام (١٨٨٢) ، وتأييدها للارمن (١٨٩٦) يوضح كيف بدأت تتخلى عن سياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية ، بالاضافة الى أن الوفاق الودى (١٩٠٤) وحادثة طابة (١٩٠٦) وتسوية الخلافات الاستعمارية مع روسيا (١٩٠٧) ، كل هذا اسهم فى تدهور النفوذ البريطانى لدى البـــاب العالى (٥) كما تبنى سولسبورى فكرة تركيز النفوذ البريطانى فى القـــاهرة عوضا عن تدهوره فى الاستانة واكتسبت هذه السياسة ليس فقط ثقة حكومة المحافظين (١٨٩٥ — ١٩٠٦) ولكن كذلك حكومة الاحرار الذين تقلدوا زمام الحكم فى عام ١٩٠٦ (٦) .

أما المصريون ، فقـــد ران عليهم يأس وقنوط وانكمأوا داخـــل أنفسهم يستوعبون صدمة الاحتلال ويستعدون لتلمس طريق آخر للخلاص غير الثورة .

* * *

شرعت سلطات الاحتلال فى القيام بعديد من الاجراءات الاقتصادية ، بدأتها بالقاء ما انفق فى الحرب على كاهل المـــالية المصرية ، وكذلك تعويضات خسائر من نكبوا فى عمليات الاسكندرية .حتى ان ميزانية عام ١٨٨٢ اختتمت بعجز يزيد على ٦٠٠،٠٠٠ جنيه (٧) كما كان على المصريين أن يدفعوا نفقات

---

(٣) مذكرات محمد على علوبة : ص ٨ — ٩ غير منشورة . بدار الوثائق القومية .

(٤) Marlowe, J., Cromer in Egypt., p. 234.

(٥) آرثر جولد شميدت : الحزب الوطنى المصرى pp. 213-14 لم نعثر على الاصل الانجليزى للكتاب واطلعنا على ترجمته العربية للاستاذ فؤاد دواره .

(٦) Marlowe, op. cit. p. 300.

(٧) روستين : تاريخ المسألة المصرية ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

جيش الاحتلال والعجز فى ميزانية السودان وتكاليف مشروعات التنمية به كما استخدمت أموال مصر فى مشروعات بعضها ضار بمصر ، كتحويل تجارة السودان الى طريق البحر الاحمر ، وفى عام ١٨٩٨ حدث ما سمى بالانقلاب المالى حيث بيعت شركة بواخر البوستة الخديوية ، وبيعت اراضى الدائرة السنية الى شركة انجليزية ، وتأسس البنك الاهلى المصرى برأسمال انجليزى، وعهد الى شركة انجليزية — فرنسية بانشاء خزان اسوان ، وقد وقع على المصريين غبن شديد فى هذه الصفقات (٨) . وقد وضع كرومر يده على كافة مرافق الدولة المالية وادارات الثروات الضخمة بها . وشرع فى استخدام بعض الوسائل للاقتصاد فى الانفاق العام منها الاقلال من الموظفين ، والغاء نظارة المعارف ، وانقاص ميزانية التعليم ومخصصات العائلة الخديوية وابطال استخدام سفينتين حربيتين ، وتمثل الانفاق عموما فى الاعمال التى تدر ربحا وبنوع خاص فى الرى والصرف ، أما الاصلاحات الادارية فجعلت فى الدرجة الثالثة (٩) وكان انشاء بنك زراعى (١٩٠٢) وقيامه باقراض الفلاحين بفائدة ٩٪ (١٠) الهدف منه مساعدتهم على أن يستبدلوا بديونهم للمرابين الاجانب دينا على البنك ، وتحقيق استقرارهم وارتباطهم بالارض . واستقدم الكولونيل «ماكريف» ، مهندس الرى الانجليزى لخدمة الحكومة المصرية كمفتش للرى فى وزارة الاشغال ، واعطى تفويضا باعادة تنظيم اساليب الرى المصرية ، فاستعان بهيئة من المهندسين البريطانيين اتى بهم من الهند ، وكان الهدف من هذه الاصلاحات وضع اسس لرخاء مصر وذلك لحل مشكلاتها المالية (١١) فتم اصلاح القناطر الخيرية لتؤدى مهمتها كاملة منذ عام ١٨٩١ مما ادى الى انتشار الرى الصيفى فى الدلتا . وتوجت اصلاحات الرى بانشاء خزان اسوان وقناطر اسيوط واسنا وزفتى عامى ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ (١٢) وكان من جراء هذا أن ارتبطت مصالح ملاك الاراضى بوجود الاحتلال .

---

(٨) محمد جمال الدين المسدى : دنشواى ، ص ٥٣ .

(٩) تقرير كرومر عام ١٩٠٢ ص ٨ (ترجمة المقطم) وقد استعنا بترجمة المقطم للتقارير حتى عام ١٩٠٢ حيث لم تنشر على الاصل الانجليزى الا ابتداء من عام ١٩٠٣ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(١١) Marlowe, op. cit. p. 75.

(١٢) احمد الخطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، ص ٣٤ — ٣٥ .

وقد اثرت هذه الاجراءات وغيرها ، فى أوضاع الاراضى الزراعية من حيث ازدياد مساحتها ، واقبال المصريين على شرائها ، وحجم توزيع الملكيات مما أثر بدوره فى نمو طبقة كبار الملاك المصريين التى كان محمد على قد وضع أساسها ، وشهدت من بعده تطورا واضحا خلال القرن التاسع عشر . حيث صدرت خلاله تشريعات وقوانين أتاحت لها النمو والاستقرار ؛ وخلال العقدين الاولين للاحتلال البريطانى شهدت تطورا مكثفا مستفيدة من اجراءاته .

فلم يكن عبثا أن يخصص لمصلحة الرى عام ١٩٠٠ مبلغ مليون جنيه (١٢) من خزانة مرهقة بالديون فى دولة تعانى العسر المالى ، حتى زادت مساحة الاراضى الزراعية زيادة بلغت ٢٣٩٠٦٨ فدانا خلال عشر سنوات (١٨٩٦ — ١٩٠٦) وهى زيادة كبيرة نسبيا اذا أخذنا فى اعتبارنا درجة التطور فى إستصلاح الاراضى واساليب ذلك خلال هذه الفترة ، كما شهدت نفس المرحلة تعديل الدورة الزراعية فأصبح من الممكن زراعة مساحة كبيرة من الارض أكثر من مرة فى العام . بالاضافة الى أن سلطات الاحتلال قد سمحت لكثير من كبار الملاك باقامة مضخات آلية للرى على الترع للاستفادة منها فى رى أطيانهم ، وارتفعت قيمة الاراضى التى كانت تستفيد من الرى الحبيفى وازداد الطلب على الاطيان ، حتى ان ثمن الفدان فى اراضى الدومين — مثلا — ارتفع من ٨٠٫٨ جنيها عام ١٩٠٠ الى ١٦٩٫٧٧ جنيه عام ١٩٠٦ (١٤) .

وقد شجعت سلطات الاحتلال حركة بيع أطيان الدائرة السنية واملاك الدومين حتى ان أطيان الدائرة قد صفيت تماما عام ١٩٠٦ (١٥) كما اصدرت الحكومة قانونا يجيز بيع املاك الدومين بعد دفع نصف الثمن نقدا والنصف الآخر على اقساط بفائدة ٤٫٥٪(١٦) الأمر الذى رفع مبيعات الدومين ٢٩٧٩ فدانا خلال عام ١٩٠٥ خاصة وقد خفضت رسوم تسجيل بيع الأراضى من

---

(١٢) تقرير كرومر لعام ١٩٠٠ ، ترجمة المنيلم ، ص ٢٩ .

(١٤) رءوف عباس : النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الكبيرة ، ص ١١٢ — ١١٥

(١٥) Egypt, No. 1, 1906, p. 61.

(١٦) جرجس جنين : الاطيان والضرائب فى القطر المصرى ، ص ٩٣ .

٥ الى ٢٪(١٧) . وما ان صدر قانون ١٨٩١ الذى كفل للافراد حق الملكية التامة فى الأطيان الخراجية وجهود الافراد لم تنقطع فى الضغط على الحكومة لكى تتنازل عن الاراضى التى تملكها ، واباحت ملكيتها للافراد . وبالفعل حصلوا على حق ملكية اراضى البرك والمستنقعات ملك الميرى بموجب لائحة ٢١ فبراير سنة ١٨٩٤(١٨) ، وازاء ازدياد الطلب على شراء اراضى الحكومة التى تنتفع بمشروعات الرى نشرت الحكومة اعلانا جاء فيه انها لا تبيع أرضا من اراضيها قبل ٣١ مارس ١٩٠٤ (١٩) ، وحتى عام ١٩٠٦ بلغت عملية الاتجار بالارض الذروة نتيجة احساس كبار الملاك بالرخاء الناتج عن ارتفاع اسعار القطن ، الأمر الذى اتاح الفرصة لبنوك الرهن العقارى وشركات الاراضى لممارسة نشاطها . حتى ان شركات الاراضى خلال الفترة من ١٨٨٨ — ١٩٠٦ قد بلغت ثلاثة عشر شريكة (٢٠) .

واذا كان العقد الأخير للقرن التاسع عشر قد سجل استقرارا ونموا للملكيات الزراعية فى مصر ، فان ذلك كان نتيجة للتحول الاقتصادى ، الذى شهدته مصر منذ منتصف القرن ، نتيجة جهود سابقة لخلفاء محمد على . ولفتح المجال امام الاستثمارات الأجنبية ، التى اهتمت بالاتجار بالارض بصفة خاصة ، واخيرا نتيجة سياسة الاحتلال البريطانى كما رأينا .

لم تهدف سلطات الاحتلال بهذه الاجراءات فى مجال الرى والاراضى ، الى زيادة الانتاج ، وبالتالى جعل مصر قادرة على سداد ديونها فحسب ، والا لظلت الاراضى المستفيدة من الاجراءات الجديدة فى حوزة الحكومة ، او على الاقل بقيت اوضاع الملكيات ومعدل نموها دون تغيير يذكر لكننا نلاحظ مدى الحرص على بيع الاراضى ، بصورة لم يسبق لها مثيل . فالى أين تؤول الاراضى الجديدة ؟ لا نبالغ ان قلنا ان سلطات الاحتلال كانت تضرب فى اتجاهين فى وقت واحد ، فالى جانب حرصها على سداد ديون مصر ، وتوجيه انتاجها بما يخدم الوجود الاحتلالى ، فانها ارادت خلق طبقة

---

(١٧) Egypt, No. 1, 1905, p. 45.

(١٨) عاصم الدسوقى : كبار ملاك الاراضى الزراعية ، ص ٤٠ .

(١٩) Egypt, No. 1, 1, 1904, p. 31.

(٢٠) Baer, G. A History of Landownership. 125.

مستفيدة من هذه الاجراءات ، يرتبط ازدهارها بوجوده ، حتى اذا ماسددت مصر ديونها واطمانت الدول الكبرى الى امتيازاتها وأموال رعاياها ، بات وجود الاحتلال أمرا لا ضرر فيه ، ان لم يكن مرغوبا .

ولعلنا بمحاولة فهم حركة ملكية الاراضي الزراعية ، من تقرير كرومر لعام ١٩٠٦ نستطيع أن نلمس مآل هـذه الاراضي من ناحية ، واثرها فى الوضع الاجتماعى من ناحية أخرى ، والجدول التالى عن توزيع الأطيان فى الفترة من ١٨٩٦ — ١٩٠٦ (٢١) :

فئـــات الملكية	سنة ١٨٩٦		سنة ١٩٠٦	
	عدد الافدنة	عدد الملاك	عدد الافدنة	عدد الملاك
اقل من ٥ أفدنة	٩٨٨٨٠٤	٦٠٨٣٧٣	١٢٥٩٦٧٠	١٠٠٢٨٠٦
من ٥ — ٥٠ فدانا	١٩٧١٩٣١	١٤١٩٦٩	١٦٤٣٤٠٥	١٣٣٥٩٧
أكثر من ٥٠ فدانا	٦٦٦٤٤٧	١٠٣٨٩	١٧٦٣١٧٥	١٠٩٢١

واول ما يستلفت نظرنا أن فئة صغار الملاك قد زادت بمقدار ٣٩٤٤٣٣ مالكا بينما الفئة المتوسطة قد نقصت بمقدار ٨٣٧٢ مالكا بينما فئة كبـــار الملاك (أكثر من ٥٠ فدانا) زادت بمقدار ٥٣٢ مالكا . وهذا يوضح كيف زحفت الفئة المتوسطة الى فئة كبار الملاك ، والتى نمت بصورة سريعة . كما أن ملكيات فئة صغار الملاك قد زادت بمقدار ٢٧٠٨٦٦ فدانا فى الوقت الذى بلغت هذه الزيادة لدى فئة كبار الملاك ١٠٩٦٧٢٨ فدانا بما يوضح أين ذهبت الاراضى المستصلحة وأملاك الدومين والدائرة والاراضى التى تركتها الحكومة . وقد علقت بعض المصادر على ذلك بأن استثمار المصريين أموالهم فى شراء الاراضى ينقل الكثير منهم من متوسطى الملاك الى كبارهم(٢٢) كما زاد متوسط ما يملكه الفرد بين من كانوا يملكون أكثر من ٥٠ فدانا من ١٨٤ فدانا الى ١٨٩ فدانا ، بينما نقص متوسط ملكية الفرد فى مصر عامة من ٥ر٦ فدان الى ٦ر٤ فدان (٢٣) .

---

(٢١) Egypt. No. 1, 1906, p. 50.
(وهذا الجدول مستخرج من عدة احصاءات)

(٢٢) Marlowe, J., Cromer in Egypt, p. 287.

(٢٣) رؤف عباس : النظام الاجتماعى ، ص ٧١ .

وثمة احصائية اخرى وردت بتقرير كرومر لعام ١٩٠٢ ، توضح تزايد نسبة كبار الملاك (٥٠ فدانا فأكثر) الى صغارهم (اقل من ٥ أفدنة) فى مدى خمس سنوات ١٨٩٦ — ١٩٠٠ وهى المسألة التى شغلت كرومر كثيرا فى تقاريره وتوضح لنا زيادة نسبة كبار الملاك من ٤٣٫٨٢٪ الى ٤٣٫٨٧٪ بينما هبطت نسبة صغارهم من ٦٥٫١٨٪ الى ٦٥٫١٣٪ فى نفس الفترة(٢٤) مما حدا بكرومر الى العمل للحيلولة دون اضمحلال طبقة صغار الملاك ، الأمر الذى قد يؤدى الى قيام اضطرابات بين الفلاحين وكبار الملاك ، وهى مشكلة لا يمكن تفاديها الا بتثبيت الملكيات الصغيرة وزيادة عدد ملاكها — وهو ما ظهر فى تقرير عام ١٩٠٦ من ثم كان الغاؤه لبعض الضرائب ، والعمل على الغاء السخرة ، وتخفيف الديون عن طريق القروض وما الى ذلك(٢٥) ولكن هذا لن يوقف ضمور هذه الطبقة وفقدانها أرضها وتحول الكثير منها الى اجراء . وحتى عام ١٩٠٧ كان حوالى ٤٠٪ من المشتغلين بالزراعة ، يزرعون أرضا استأجروها ، وكان حوالى ٣٦٪ عمالا زراعيين أجراء (٢٦) وذلك فى الوقت الذى بدا واضحا أن طبقة من الارستقراطية الزراعية ، التى تستمد وجودها من ملكية الارض الزراعية ، آخذة فى النمو مستفيدة من الأوضاع الجديدة .

كذلك بلغ التخصص فى الانتاج الزراعى درجة كبيرة ، فكان واضحا اهتمام سلطات الاحتلال بالتوسع فى انتاج القطن لسد حاجة لانكشير منه ، وبقصد انتاج محصول يدر العملات الاجنبية ، ومما يكفل سداد فوائد الدين الخارجى واقساطه ، وكان ذلك على حساب زراعة الحبوب ، مما أدى الى عجز مصر فى سداد حاجة استهلاكها المحلى من المواد الغذائية (٢٧) .

وتحت اغراء الربح العاجل والمضمون من الاتجار وزراعة الاراضى ، وازدياد حدة المنافسة الاجنبية ، وعدم وجود حماية جمركية ، تدهورت الصناعة . كما أدى استيلاء الاحتكارات الاجنبية على جزء كبير من الدخل

---

(٢٤) تقرير كرومر عن عام ١٩٠٢ ، ترجمة المقلم ، ص ٤٢ .
(٢٥) رؤف عباس : النظام الاجتماعى ، ص ١٣٧ — ١٤٩ .
(٢٦) المسدى : دنشواى ، ص ٥٥ .
(٢٧) أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى ، ص ٥٠ وكذلك على الجريتلى : تاريخ الصناعة في مصر ، ص ١٧٧ .

القومى عن طريق تصدير الأرباح ، وعن طريق التبادل التجارى غير المتكافىء — ادى الى انكماش السوق القومية ، واضعاف القوة الشرائية ، مع ما ترتب على ذلك من تجميد القدرة الشرائية ، وابطاء التطور الطبيعى للراسمالية الوطنية المصرية الى درجة تقرب من التوقف التام . على الرغم من تجمع جزء من فائض الأموال فى ايدى حفنة من كبار الملاك الزراعيين تتمثل فى الأرصدة المودعة فى البنوك وفى عمليات المضاربة ، غير أن تراكم هذا القدر من راس المال الوطنى لم يؤد الى تدعيم الاقتصاد القومى ، فقد تعثر فى الجرى وراء الأخذ بمظاهر المدنية الغربية (٢٨) .

انعكست اجراءات الاحتلال البريطانى ، سواء فيما يتعلق بالرى وملكيات الاراضى ، او التحكم فى النشاط الصناعى والمصرفى ، بشكل او بآخر على الخريطة الاجتماعية لمصر . واذا اخذنا جانب التعميم امكننا ان نرى بوضوح ، بروز طبقة من كبار الملاك الزراعيين ، ذات ملامح ارستقراطية ، قوامها الاتراك ، وكبار الملاك المصريين ، او بتعبير العصر ، طبقة الاعيان والذوات ، وفى القاع توجد طبقة عامة الشعب من الفلاحين والصناع وصغار التجار وارباب الحرف ، التى كانت تشغل مركز الطبقة الثرية فى المجتمع ، حتى فرض محمد على نظام الاحتكار فتحول ارباحها الى اجراء ، الا انها لم تختف تماما وان كانت قد ضعفت بالفعل (٢٩) .

كما توجد بين الطبقتين طبقة ثالثة وسطى من المهنيين والموظفين وفئات من رجال الدين ، وان اتضح بالفعل غياب بورجوازية صناعية تجارية بشكل واضح ، منذ عصر محمد على الذى كان لتحطيمه طبقة التجار المحليين والحرفيين اثر فى عرقلة نمو طبقة وسطى مصرية (٣٠) ، وان كان محمد على قد ساعد على خلق طبقة من الاداريين ، دخلت بدورها فى عداد الطبقة البورجوازية ، ولعبت دورها فى تاريخ مصر السياسى والاقتصادى . برغم الطابع البيروقراطى الذى خيم عليها (٣١) .

---

(٢٨) رؤف عباس : النظام الاجتماعى في مصر ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢٩) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ، الجزء الاول ، ص ٢٢ .

(٣٠) هيلين ريفلين : الاقتصاد والادارة في مصر ، ص ٣٦٢ .

(٣١) Safran, N., Egypt in Search. pp. 30 - 31.

وعلى ذلك فان الإدارة الانجليزية تعزى اليها احداث تغييرات كمية وتطورات فى الانظمة (٣٣) ، دونما احداث تغيير فى البناء الهرمى للمجتمع من الناحية الكيفية ، اللهم الا زيادة حدة التناقضات الطبقية بين كبار ملاك الاراضى الذين رأينا معدل النمو فى ملكياتهم ، وصغارهم الذين اخذوا فى التحول الى اجراء او معدمين . ومتوسطيهم الذين يذوبون تدريجيا فى كلتا الطبقتين . ورغم هذا فاننا نلمح نمو بورجوازية مصرية فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر نتيجة عوامل منها زيادة السكان التى بلغت الضعف خلال ثلث القرن السابق على عام ١٩٠٧٠ (٣٣) الامر الذى ادى بدوره الى نمو المدن ، وما صحب ذلك من نمو للراى العام (٣٤) ، وخلق مصالح بورجوازية ، وكذلك نتيجة لاتجاهات الحكام ، وقد احتضنت هذه البورجوازية فئات مختلفة فضمت اولئك الذين انتزعوا من صلب الريف ، ومن مهاجرى الشام ، واهل التجارة والادارة . وما كاد القرن التاسع عشر يبلغ نهايته حتى كانت العناصر المثقفة من ارباب المهن الحرة كالمحامين والمهندسين والأطباء تتصدر قيادة الطبقة الوسطى ، وقد كان هؤلاء فى الغالب من ابناء الاعيان وكبار الموظفين وهؤلاء رغم انحدارهم من اصول ريفية فانهم يمثلون مصالح سكان المدن(٣٥) ويعبر عنهم « بالأفندية » وهو تعبير يفيد حصولهم على قدر من التعليم والثقافة ، فى مقابل لفظة « الاعيان » ذات المدلول المادى (٣٦) .

أما طبقة الاعيان او كبار ملاك الاراضى الزراعية ، فقد نمت العناصر المصرية فيها نموا كبيرا ، واكتسبت قيما واخلاقيات وطموحات جديدة نحو

---

(٣٣) Ibid., P. 56.

(٣٣) البراوى وعليش : التطور الاقتصادى لمصر ، ص ١٨١ (يذكر أن عدد السكان عام ١٨٧٣ كان ٥٠ر٠٠٠ر٥ نسمة واصبح ٥٩ر٢٨٧ر١١ نسمة عام ١٩٠٧) .

(٣٤) يونان لبيب : الحياة الحزبية فى مصر ، ص ١٠ (زاد سكان المدينة بنسبة ٦٨ فى المائة من الزيادة الكلية لسكان مصر بين عامى ١٨٨٢ — ١٨٩٧) .

(٣٥) احمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى ، ص ٥ ، رؤف عباس : النظام الاجتماعى فى مصر ، ص ٢٢٨ .

(٣٦) وقد عبر المليجى عن هذه الطبقة فى حديث عيسى بن هشام ، ج ١ ، ص ١٨٦ بقوله « انها حديثة النشأة لا من هؤلاء ولا من هؤلاء . اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه فى المدارس من العلوم الالية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية وقد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع ... » وهو قول فيه شىء من المبالغة .

تسيد المجتمع وشغل مركز الصدارة فيه ، وقد بدأت عملية « احلال » لهم في هذا المركز كبديل لانقراض العنـــاصر التركية والشركسية . وكانوا قد تافسوا الاتراك فى شراء الاراضى الزراعية ، واكتتبوا معهم فى شركة زراعية رأس مالها خمسمائة الف جنيه لشراء اراضى الدومين والدائرة السنية (٣٧). كما نفس ابناؤهم عليهم الوظائف الحكومية ، فحين دخل الانجليز مصر كان الذوات الاتراك لا يزالون يتربعون على قمة الجهاز الحكومى ، وقد أبقى عليهم الاحتلال لفترة حتى يحين الوقت الذى ينشىء فيه كوادر جديدة من ابناء الأعيان المصريين (٣٨) كذلك لجأ ابناؤهم الى الاصهار الى بقايا الفئة التركية بل كان من اعيان المصريين من ورثوا قصور الاتراك ، فقد اشترى حسن باشا عبد الرازق منزل الاميرة فاطمة هانم ابنة الخديو اسماعيل(٣٩) وقد بدا المجتمع المصرى ، وكأنه مجتمع تركى أو كالتركى ، فكان الاصطياف فى اســـتانبول أمرا مألوفا (٤٠) ، وكذلك تلد المصريون الاتراك فى اسلوب حياتهم ، واخذوا مثلهم بمظاهر المدنية الاوربية . فسكنوا المدن واقاموا القصور والمضايف المتسعة واقتنوا الجوارى والعبيد وتقربوا الى الذوات وسعوا لاقامة علاقات اجتماعية معهم (٤١) .

اما فئة الاتراك داخل هذه الطبقة فلم يكد القرن التاسع عشر يبـــلغ نهايته حتى كانت قد انحصرت داخـــل اسرة محمد على بفروعها ، وبعض العائلات التركية والشركسية التى تلوذ بها ، ساعد على ذلك أن ســـيل الاتراك ـــ الذى انهمر على مصر خلال عهدى محمد على وعباس الاول ـــ قد أخذ فى الانحســـار بعد ذلك مع اضمحلال شأنهم كفئة اجتماعية نتيجة نمو فئة الاعيان المصريين وارتفاعهم من قمة الطبقة الوسطى الى الطبقة الاعلى، واحلال ابنائهم الذين تلقوا تعليما أوربيا ، الى جانب عدد من السوريين ، محلهم فى الوظائف . والى تأثير الاحتلال ، مع عوامل الضعف الذاتية ، نتيجة

---

(٣٧) مذكرات محمد فريد ، القسم الاول ، ك ٣ ، ص ١١ .

(٣٨) رؤف عباس : النظام الاجتماعى ، ص ١١٥ .

(٣٩) المؤيد ـــ ٤٩٠٦ ـــ فى ٤ يوليو سنة ١٩٠٦ .

(٤٠) ذكريات ســـلامة موسى ، القاهرة ١٩٠٣ ـــ ١٩٠٧ ، الكاتب المصرى ، يوليو ١٩٤٦ ، ٢٩٤ .

(٤١) رؤف عباس : النظام الاجتماعى ، ص ١١١ .

أحكام هذه الفئة الاتغلاق على نفسها ، مما ادى فى النهاية الى اضمحلال تأثيرها فى التركيب الاجتماعى المصرى .

وفى تقديرنا أن فئة مشايخ القرى تعتبر ضمن هذه الطبقة العليا ، التى تتكون أساسا من كبار ملاك الأراضى الزراعية وكبار زعماء البدو وكبار التجار والعمد ، فهذه الفئة يؤخذ منها العمد ، ورغم انها تقف موقفا وسطا بين الطبقة العليا وطبقة الفلاحين الا انها تمثل المدد الذى غذى الطبقة كبديل لانقراض الاتراك ، بارتفاعها ودخولها فى عداد الطبقة العليا ، وكانت هذه الفئة تمثل حلقة اتصال بين الحكومة وجماهير الريف . وكثيرا ما اتيح لأفرادها أن يضيفوا الى ملكياتهم وان يزيدوا ثرواتهم ، بفضل ما وفرته لهم اللوائح والقوانين الخاصة بتثبيت الملكية العقارية ، يضاف الى ذلك ما أتته الحكومة من اعمال واصلاحات مكنت الكثير من افرادها من الصعود الى طبقة كبار الملاك (٤٢) .

* * *

فى تحليلنا للخريطة الاجتماعية راينا أن اكثر الطبقات ثقلا من حيث الوضع الاقتصادى والاجتماعى ، هى طبقة كبار الملاك أو الأعيان ، وهذه الطبقة وان كانت تمثل فى عهد الاحتلال جيلا فى دور الكهولة ، فان معقد الرجاء قد التف حول ابنائه . أولئك الذين نالوا قسطا من التعليم يؤهلهم للمشاركة فى ميادين الحياة العامة . وكما سبق أن اتضح أن اجراءات سلطات الاحتلال الاقتصادية ، لم يكن القصد منها اصلاح أوضاع مصر الاقتصادية لجعلها قادرة على الوفاء بالتزاماتها فحسب . أو حتى امتصاص خيرها بفضل سياسة زراعية « موجهة » فحسب ايضا ، ولكن كان على بريطانيا أن توفق بين هذين الهدفين وهدف ثالث . يدخل فى باب السياسات غير المعلنة ، بدت لنا ملامحه من مساعدة طبقة مصرية على البروز الى سطح الحياة العامة من خلال العديد من الاجراءات التى ساعدت على بلورة الوضع الاجتماعى لمصر بالشكل الذى جعل هذه الطبقة وابنائها ، أكثر الطبقات المصرية ثقلا ، فلم يكن اهمال الصناعة وما صاحبه ومن واد

---

(٤٢) عبد الخالق لاشين : سعد زغلول ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٨ . كذلك المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، وايضا Baer, G, op. cit. pp. 1-12

بورجوازية صناعية ، والاجهاز على طوائف الحرف ، وقد بدأ اضمحلالها زمن محمد على ، والغاء التعليم المجانى ، وحرمان طبقات الشعب منه ، وتحويلها فى مجال ملكية الارض الى أجيرة أو شبه معدمة ، لم تكن هـذه الاجراءات السلبية امرا عفويا ، فقد كان هناك هدفا ثالثا يكمن فى سياسة الاحتلال ، الا وهو « طول البقاء » فقد كانت مشكلة انجلترا اذا ما كان على أوربا أن تلزمها بالجلاء ، او اذا كان المستقبل سيحمل فى طياته بذور حركة وطنية ، كان عليها أن تبرر وجودها بخلق ضرورة لدى المصريين لبقائها .

وهذا الهدف الثالث كان عليه أن يسير فى محورين رئيسيين : أولهما : احتضان ابناء كبار الملاك من المتعلمـين واغراؤهم بالمناصب الادارية ، وثانيهما : اقناع النابهين من المصريين ، أو ذوى الثقل الفكرى ، بسياسة الاصلاح واهميتها لمصر ، بغض النظر على يد من ستكون ، فكبار الملاك توقعهم الاحتلال داخل مصالحهم ، وهيأ لهم فرص الاستزادة من اجراءاته ، وعقد معهم أوثق الصلات حتى ان كرومر اعتبرهم من أصدقائه المخلصين الذين يكاشفونه بآرائهم بتمام الحرية ويظهرون له رغباتهم ، التى أحيانا ما تبدو متناقضة ، لكن خلاصتها الرغبة فى الحصول على فوائد الاحتلال ، كما ادعى ايضا انهم وجوه المصريين الذين يشكون اليه من تلقيب زعمـاء الحـزب الوطنى ، باللقب الذى ادعوه لانفسهم وانهم صارحوه بأن افراد هذا الحزب قليلون ويكثرون من الضجيج والجلبة ولا يمثلون بنى وطنهم (٤٣) وقد وضعت سلطات الاحتلال نظاما لتعيين العمد عام ١٨٩٥ روعى فيه أن يتم اختيارهم بمعرفة لجنـة تشكل فى كل مديرية ، يكون من بين أعضائها ممثلون عن العمد ، ولكنه اخضعهم ـــ فى نفس الوقت ـــ لسلطة الاحتلال ، اذ جعل تعيين العمد وتأديبهم من سلطة المديرين الذين كانوا تابعين لمستشار الداخلية الانجليزى ، كما منحوا سلطات ادارية وقضائية وغرت لهم نفوذا واسعا على الفلاحين (٤٤) .

واستدار الاحتلال نحو ابنائهم ، او ذلك الجيل الجديد الذى تربى فى عهده ، ولم يحمل من الحركة الوطنية الا ذكرى ثورة ، وكان كرومر يعرفهم

---

(٤٣) Egypt, No, 1, 1906, pp. 7-8.

(٤٤) رؤف عباس : النظام الاجتماعى ، ص ١٣٦ ـــ ١٣٧ .

قدر معرفته للجيل القديم ، وبدا له ان الأمل معقود عليهم ، خاصة وهو يجتوى عناصر تبشر بالتعاون معه (٤٥) فغمرهم بالوظائف حتى آذانهم ، وكان واضحا ان خريجى مدرسة الحقوق ـ وغالبيتهم الساحقة من أبناء الاعيان القادرين ماديا ـ مدينون للاحتلال بوظائفهم ، فملنر ـ وكيل المالية آنئذ ـ يدعو عبد العزيز فهمى ويحدثه عن حاجة الحكومة الى متخرجى مدرسة الحقوق ليعملوا فى وظائف الادارة ، ويعرض عليه وظيفة معاون بادارة الدقهلية عام ١٨٩٢ فيقبل (٤٦) ، وتتضح هذه السياسة اكثر فى تغيير المديرين من الطبقة القديمة والاستعاضة عنهم بالشبان المتعلمين (٤٧) . ويعين لطفى السيد ، سكرتيرا للانوكاتو العمومى ، بعد عام من تخرجه من الحقوق عام ١٨٩٥ ، وبعد عام يصبح وكيلا للنيابة ، ويبدو ان « كوربت » باشا ، النائب العمومى قد لعب دورا فى هذا التعيين وان كان قد وقع بينه وبين لطفى خلاف فى الراى القانونى أدى الى استقالة الاخير (٤٨) . وكان رجال الاحتلال يمنحونهم قدرا من الثقة ليضمنوا ولاءهم ، فعبد الخالق ثروت ، سكرتير المستشار القضائى ـ مكلريث ـ كان محسودا على ما تمتع به من ثقة السير ، وكان بعضهم يأخذ على مكلريث ، هذه الثقة العمياء بشاب قد لا يقدرها ، ولكن الرجل لم يكن يصغى اليهم ، ويؤكد انه واضع ثقته فيمن يستحقها (٤٩) . وقد كان أمرا واضحا ان يكافأ الشبان المصريون الذين يبدون استعدادا للتعاون مع البريطانيين بسلسلة من الوظائف بلا اى سلطة ، تصل ذروتها أحيانا الى وزارة بلا معنى (٥٠) ولم يكن حرص سلطات الاحتلال على وضع نظارة الداخلية برمتها فى قبضتها منذ عام ١٨٩٤ حين عينت جورست ـ وكيل المالية آنئذ ـ مستشارا لها ، وحين كلفت ناظر الداخلية باصدار لائحة بالاصلاح المراد ادخاله (٥١) ، ولم يكن ذلك كله الا

---

(٤٥) Chirol, V. : The Egyptian Problem, p. 97.

(٤٦) عبد العزيز فهمى ، هذه حياتى ، ص ٣٩ .

(٤٧) مذكرات محمد فريد : القسم الاول ، كراس ٤ ، ص ٨٨ .

(٤٨) أحمد لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ٣٥ .

(٤٩) حسن الشريف : الرجال أسرار ، ص ٤٠ .

(٥٠) جواد شمدت : الحزب الوطنى المصرى p. 115.

(٥١) مذكرات محمد فريد ، القسم الأول ، الكراس ٤ ، ص ٨٨ (وتمتلىء الكراسات الأولى بالحديث عن التغييرات التى أحدثها الانجليز فى الوظائف وتعيين المصريين فيها) .

خطوات محسوبة نحو تدعيم العلاقة بين رجـــال الداخلية الانجليز ، وبين العمد والمشايخ من ناحية ، وتهيئة المناخ لتعيين ابنائهم فى وظائف المديرين من ناحية أخرى ، وقد لقى الانجليز استجابة واضحة لهذا الامر حتى أن عدد الشبان المصريين الذين يطلبون خدمـــة الحكومة اصبح يفوق بكثير عـــدد الوظائف الموجودة (٥٢) وقد ازدادت اعداد المصريين فى الوظائف بالنسبة للاوروبيين من ٨٤٤٩ الى ١٢٠٢٧ موظفا فى الفترة من عام ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٦ ، بينما ظل عدد الاوروبيين (١٢٥٢) دون تغيير (٥٣) .

اما المحور الثانى لسياسة الاحتلال ، فقد كان غرس بذرة الاصـــلاح او اقناع المصريين بضرورة اتباع سبيل الاصلاح ، كبديل للثورة ، يفيد ماديا وادبيا ، ثم هو فى النهاية ، وان كان بطيئا ، مضمون ؛ وهذه السياسة بالذات ترضى فى المصريين ذلك القطاع المثقف ثقافة غربية ، ممن يدخلون فى عداد المفكرين المصريين ، كانت فكرة كرومر الاولى هى « اقتناع المصريين بأن كل انجليزى موظف فى مصر لم يوظف فيها الا اعتمادا على ان خدمته نافعة لهم ، وان مصالح الانجليز ومصالح المصريين متفقة لا تناقض بينها بوجه من الوجوه ، وان الحكومة الانجليزية والامة الانجليزية تهتمان بأمر له الشأن الاكبر عنـــد المصريين ، وهو صلاح حكومة مصر ونجاحها » (٥٤) وتقرير كرومر الاخير يصرح بأن ذلك لايتم « بالمعارضة ولكن بالتعاون مع الاوروبيين — يقصـــد الانجليز بالذات — فى ادخال الحضارة الغربية فى بلدهم ، وقد أمل أن يجد صدى لدى جماعة من الوطنيين الذين لاحظ تطورهم بارتياح وعطف (٥٥) ولم يكن خافيا أن تنفيذ تلك السياسة يستلزم ان تطول مدة الاحتلال « فيبدو أن ان الناس لم يتصوروا فى هذه الفترة أن سياسة الاصلاح والتعجيل بالجلاء نقيضان لا يجتمعان وان التوفيق بينهما أمر غير ميسور » (٥٦) وقد وجدت هذه السياسة بالفعل صداها لدى المصريين النابهين ، ويبدو هذا واضحا فى حديث محمد عبده الى بلنت ، حين زاره فى بيته (١٨٩٢) فقد قال الشيخ

---

(٥٢) تقرير كرومر عن عام ١٩٠٢ ، ترجمة المقطم ، ص ٩٥ .

(٥٣) Marlowe, J. : op. cit. p. 222.

(٥٤) تقرير كرومر عن عام ١٩٠٠ ، ترجمة المقطم ، ص ٨٣ .

(٥٥) Chirol, V. : op. cit. pp. 97 - 98.

(٥٦) Egypt., No. 1, 1904, p. 3.

« نحن لا نفهم كون الانجليز يبقون لعام أو عامين أو حتى لخمسة اعوام ، أو لمدة أطول ، فسوف يكون شيئا مفيدا لبلدنا لومنحتهم الوقت الكافى حتى ينمو حزب الفلاحين» — يقصد الاعيان — وقد علق بلنت على ذلك بقوله « الآن يبدو الشيخ محمد عبده اعظم المحبين للانجليز من المصريين » (٥٧) واذا جاز لنا أن نفسر ذلك بعلاقة قديمة بين محمد عبده وكرومر ، فاننا نجد تسرب تلك الروح ، عند واحد من أصلب زعماء الحركة الوطنية المصرية واشدهم تطرفا — فيما بعد — وهو محمد فريد ، الذى كتب فى مذكراته « وفى الواقع فانى اعترف بدون مبالاة اننا محتاجون لمساعدة الانجليز لنا مدة لاتقل عن خمسة عشر سنة حتى نبلغ شأوا من التمدن والتقدم فى سبل المعارف فيمكننا ان ندبر احوالنا بانفسنا لاننا الآن كالشاب الذى لم يحز من الدربة ما يؤهله لمباشرة اعماله بنفسه ... » (٥٨) لقد حاول كرومر بذلك ان يضع قاعدة مضمونها التعامل ثم التعاون مع سلطات الاحتلال من منطق الامر الواقع ومحاولة الاستفادة منه تحت شعار الاصلاح فنجح فى تأجيل الثورة المصرية ما يزيد على ثلث القرن .

* * *

شهدت مصر ما بعد الاحتلال طورا جديدا من التغير ، كان لسياسة الاحتلال واجراءته اثر كبير فى تكوينه ، عند الذين كرهوه والذين اقروه على السواء واذا جاز لنا ان نعتبر ان عقدين من الزمان كافيان لانضاج الجيل الذى شهدت طفولته سنى الاحتلال الاولى ، فان السنوات الاولى من العقد الاخير للقرن التاسع عشر تصبح توقيتا طبيعيا لبروز هذا الجيل على سطح الحياة المصرية ، فى الوقت الذى لم تكن فيه أصوات الجيل السابق قد خمدت تماما نتيجة صدمة الاحتلال ، وان كانت قد تغيرت كما وكيفا ، لقد افقدتهم الصدمة النطق لبعض الوقت ، فى الوقت الذى شهدوا فيه ارساء الاحتلال لسياساته ، وكان أمرا طبيعيا ان يتردد رجاله فى رفض هذه السياسات ، وذلك أما لشعورهم بالضعف او لعجزهم عن انكار ان مصر كرومر كانت فى كثير من

---

(٥٧) Blunt, W. S. : My Diaries, p. 91.

(٥٨) مذكرات محمد فريد ، القسم الاول ، الكراس (١) ، ص ٤ .

النولحى أفضل من مصر اسماعيل (٥٩) كذلك كان إخفاق الثورة العرابية قد جدد الكثير من الثقة لديهم ، ومع هذا لم يستطع الاحتلال تحطيم بذور الحركة الوطنية « فظلت تتابع عملها فى خفاء كتوم » (٦٠) فكانت الجمعيات والمنتديات والصحف خمائر الحركة الوطنية ، تجتذب شباب الجيل الجديد ، فتقرأ عن جماعة لطيف سليم ، وصالون نازلى فاضل ، وظهور جريدة المؤيد ، التى أسسحت صدرها لاقلام سعد زغلول ومصطفى كامل وقاسم أمين والهلباوى وغيرهم (٦١) والتقى فى اثون الحركة الجديدة الشباب العائد من أوروبا وصغار الموظفين ، وطلبة المدارس الثانوية والعالية ، بالاضافة الى فريق من الاعيان الذين التصتوا بالخديو الشاب ، وأيدوه حين طوف بالبلاد فى فبراير عام ١٨٩٣ (٦٢) ، وظاهروه خلال أزمة ١٨٩٣ مع كرومر ، وسبقوه للاستقالة فى يوليو من نفس العام ليحسنوا استقباله . كما ضمت قطاعات من ذوى الثقافة القانونية ، بالاضافة الى أصحاب المهن من أفراد الطبقة الوسطى الصغيرة (٦٣) .

وانتقل الجيل الجديد من الكتابة فى الصحف القائمة الى خلق صحف خاصة به (٦٤) ، وأضاف الى جانب الانتماء الى الجمعيات العلنية ، تكوين الجمعيات السرية ، التى باتت شكلا مميزا للحركة الوطنية فى تسعينيات القرن التاسع عشر ، وربما استفاد مما حدث للعرابيين ، فنبذ أسلوب الثورة حتى أن مصطفى كامل ينفى عن نفسه هذه « التهمة » ويعتبرها نوعا من الجنون ،

---

(٥٩) حورانى : الفكر العربى ، فى عصر النهضة ، ص ٢٤١ .

(٦٠) مذكرات عباس الثانى ، المصرى ٤٨٣٢ فى ١١ مايو ١٩٥١ .

(٦١) عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ، الجزء الرابع ، ص ٨٤ .

(٦٢) وقد أحسن استقباله محمود بك سليمان وألقى خطبة بين يدى سموه وكذلك أقام له على بك شعراوى سرادقا فخما ، انظر أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، الجزء الثانى ، القسم الأول ص ٨٦ — ٨٧ .

(٦٣) Wendell, Ch., The Evolution of the Egyptian National Image. pp. 202 - 203.

(٦٤) مصطفى كامل ينشىء « المدرسة » ومحمد فريد يصدر « الموسوعات » التى يحرر فيها لطفى السيد ، الذى ينشىء بدوره « الشرائع » ليحرر فيها طلاب الحقوق ، انظر : لطفى السيد ، قصة حياتى ، ص ٣٨ ، اسماعيل صدقى ، مذكراتى ، ص ٧ .

ويطالب المصريين أن ينفوا باعتدالهم وسكونهم تهمة من يرمونهم بحب الهياج والاضطراب (٦٥) .

ويختتم الخديو عباس حلمى خطاب افتتاحه للجمعية العمومية عام ١٨٩٢ بقوله : « انه بمعونة الله ومعاضدة الامة تكون اعمالنا ومساعينا عائدة على مصر بالسعادة والرفاهية » وهى أول مرة ذكرت فيها الامة فى مقام رسمى(٦٦) ، وهكذا تحتوى الحركة الوطنية الخديو الشاب ، على الاقل فى السنوات الاولى من توتها ، الأمر الذى اكسبها قوة واهمية ، وقد اشيع عنه انه قال « اما أن اكون خديويا بالمعنى الصحيح واما ان احمل حقيبتى » (٦٧) وبفضل تشجيعه لها اصبحت الحركة عملية من خلال مساعداته المالية للصحافة وخلال السنوات الاولى لحكمه وضع نفسه فى صدر الحركة حين كان بوسعه أن يفعل ذلك ، حتى بدا كزعيم للوطنيين كما بدا نظريا كما لو كان حاكما شوريا ، الأمر الذى شجع الوطنيين اللبراليين على الانضمام اليه (٦٨) ويروى انه قال « لما أفلت الضباط من يدى اذ دخلوا الماسونية التى كان يرأسها السردار تحولت الى الشباب فلبست اللباس المدنى وقربت منى مصطفى كامل ولجنة السرية التى كنت اجتمع بها ليلا فى مسجد بناحية سراى القبة » (٦٩) وبالفعل بدا يستعين بالنابغين الشباب فاتخذ الهلباوى عام ١٨٩٣ مستشارا للاوقاف الخصوصية ولديوان عموم الاوقاف ، وكان يعاونه وكيل قسم قضايا الاوقاف عبد العزيز فهمى (٧٠) كما ابتدع ان يكون مجلس النظار تحت رئاسته عند كل انعقاد حتى يكون ملما بجميع المسائل (٧١) ولم يغمض كرومر جفنيه لحظة عن سلوك الخديو الشاب منذ توليه فى ١٣ يناير ١٨٩٣ ، فأرسل الى روزبرى ما وصفه بأنه « أعظم الرسائل التى كتبتها لك

---

(٦٥) الرافعى : مصطفى كامل ، ص ٢٦٦ ، ٤٤٧ ، وكذلك احمد رشاد : مصطفى كامل ، ص ٥ .

(٦٦) مذكرات محمد فريد : القسم الأول كراس ٢ ، ص ٨ — ٩ .

(٦٧) مذكرات محمد على علوبة : ذكريات اجتماعية وسياسية ، غير منشورة ، ص ٣٧.

(٦٨) Afaf L. Al., Egypt and Cromer, pp. 137-145.

(٦٩) المصرى ٢٧٩٠ فى ٢٣ ديسمبر ١٩٤٤ مقال لمحمود عزمى بعنوان « عباس حلمى الثانى » .

(٧٠) عبد الحليم الجندى : جرائم واغتيالات القرن العشرين ، ج ١ ، ص ٣١ — ٣٢

(٧١) قليني فهمى : مذكرات قليني فهمى ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

الاهمية منذ اتيت مصر » بأن « الخديو الشاب يداب على اثارة المتاعب ، وانه الشاب احمق متطرف ، وقد يكون من الصعب ان نعرف كيف نتعامل معه ولكن اعتقد انه سيتلقى درسا قاسيا » فالسنوات التى بدأ بها كرومر نشاطه جعلته يظن ان بوسعه ان يضع عباسا فى جيبه كما بدا واضحا على وجه التقريب ان الخديو كان محبوبا من شعبه بدرجة لم يتوقعها كرومر (٧٢) ويرى كرومر ان نيات الخديو تدل على رغبته فى ان يقف موقف مصرى غيور على بلاده « فقد شكا الى مستر هاردنج — القائم مقامه — حين كان خارج مصر عام ١٨٩٢ بأن المصريين يعتبرون مصطفى باشا فهمى انجليزيا أكثر من اللازم وليس مصريا بدرجة كافية .. » (٧٣) وبات واضحا ان هناك صراعا بين عباس وكرومر على اجتذاب شباب الحركة الوطنية الجديدة ، وان اختلفت اساليب كل منهما ، فبينما لجأ عباس الى مساعدتهم بالانفاق على جمعياتهم السرية ، وارسال افراد منهم للدعاية فى اوروبا ، وتمويل الجرائد ، لجأ كرومر الى احتوائهم فى الجهاز الحكومى الذى يشرف عليه الانجليز ، بما يحقق لاسرهم طموحا معروفا ، وكان هؤلاء الشباب يمثلون مستقبل مصر السياسى ، والخديو بعد فى مقتبل عمره ، وكرومر لا يرسم لبلاده الا سياسة المستقبل ، من ثم كان على الصراع ان يتخذ بعدا جديدا ، لولا ان عباسا خسر معاركه مع كرومر ، حين لقنه هذا عدة دروس كان أولها الازمة التى اثيرت عند قراءة فرمان توليه فى ابريل عام ١٨٩٢ ، ثم فى الازمة الوزارية (١٨٩٣) . كما نصب له — وعلى حد تعبيره — شركا عرف بحادث الحدود ، جعله يوقع على اثره امرا يوميا فى عبارات مذلة للبلاد ولشخصه (٧٤) . كذلك اقتنع الخديو بعد زيارته للآستانه (١٨٩٣) بانه لا ينبغى ان ينتظر منها أقل مساعدة لقد ذهب اليها فى تعبير كرومر — شاهرا سيفه وعاد خصما مؤدبا ذليلا (٧٥) ولجأ بعد ذلك الى الاسلوب السرى فاتفق مع مصطفى كامل على تشكيل لجنة سرية للدفاع عن مصالح مصر ضمت العديد من الشخصيات المصرية والفرنسية ولعل هذا كان أحد العوامل التى جرت الحركة الوطنية فى البداية

---

(٧٢) Marlowe, J. : Cromer in Egypt pp. 161 - 162.

(٧٣) Cromer : Abbas II, p. 10.

(٧٤) مذكرات عباس الثانى : المصرى عدد ٤٨٢٥ فى ٤ مايو ١٩٥١ .

(٧٥) Cromer : Abbas II, p. 48.

صوب فرنسا ، كذلك طلب الخديو الى لطفى السيد ، الذى أنشأ مع عبد العزيز فهمى جمعية هدفها تحرير مصر ، عن طريق مصطفى كامل أن يشترك معهم فى تأليف حزب وطنى تحت رئاسة الخديو ، وبالفعل انضم التنظيمان أحدهما للآخر ، وكان اعتقاد هذه الجمعية ان الكلمة الاولى لتحرير مصر فى يد أوروبا عامة وفرنسا خاصة (٧٦) ومن أجل هذا قرر الحزب ايفاد لطفى السيد الى سويسرا ليتجنس بجنسيتها ثم يقوم بتحرير جريدة تحميها الامتيازات الاجنبية ، لكن تركيا لم توافق (٧٧) وكان الهدف هو السعى فى تقوية الحركة الحاصلة فى أوروبا ولايكون ذلك الا باتباع طريق واحد هو التحبب الى كل السياسيين وملاطفة أرباب الصحف والكتابة والخطابة ونشر الرسائل .. » (٧٨) وكان واضحا أن أوروبا هذه تعنى فرنسا الوحيدة التى باستطاعتها مزاحمة انجلترا ، والتى تستطيع أن تمنح كثيرا من الوطنيين حمايتها الشخصية ليتسنى لهم بذلك محاربة انجلترا (٧٩) ثم هى لن تترك الانجليزيمسون الخديو وعرش ملكه بسوء ، فهذه سياسة تقليدية عندها ، خصوصا وان مصلحتها تقتضى ذلك فى الظروف الحاضرة (٨٠) وسرعان ما اثبتت لهم الحوادث تبخر هذه الفكرة . حين انسحبت فرنسا من فاشودة ، واكرهت بريطانيا مصر على توقيع اتفاقية السودان (١٨٩٩) ولم تحرك فرنسا ساكنا ، وجاء وفاق عام ١٩٠٤ ليمحو بصورة قاطعة ذلك الخيط الواهى الذى ظل يربط الوطنيين بفرنسا منذ بداية فاشودة . وبقيت لديهم

---

(٧٦) لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ٣٤ — ٣٥ ويضيف « وألفنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو واعضاؤها مصطفى كامل ومحمد فريد وسعيد الشيمى ياور الخديو ومحمد عثمان ولبيب محرم وأنا وكان الخديو اسمه بيننا الشيخ ومصطفى أبو الندا وأنا أبو مسلم » .

(٧٧) اللواء الجديد عدد ٥ فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٤ ويضيف لطفى فى حديثه لمندوب اللواء الجديد « وأذكر أننى كنت مريضا فزارنى مصطفى كامل فاقترحت عليه انشاء جريدة وقد وفق فعلا لتحقيق هذه الفكرة ، فكانت جريدة اللواء ، غير أنى لم أقم بتحريرها اذ كنت موظفا ... » ..

(٧٨) أوراق مصطفى كامل ، الملف الأول ، رسالة (٥) فى ١٩ سبتمبر ١٨٩٥ منه الى الخديو — وكان الخديو يرى أن ما يلزم المصريين هو اثارة اهتمام أوربا بالحركة التحررية والظفر فى الأوساط السياسية الأجنبية بالعون والارشاد مذكرات الخديو ، المصرى ٤٨٢٨ فى ٧ مايو ١٩٥١ .

(٧٩) مصطفى كامل : رسائل مصرية فرنسية ، ترجمة على فهمى ، ص ٣٧ .

(٨٠) أوراق محمد فريد ، الملف الثامن ، رسالة اليه من مصطفى كامل فى ١٠ اغسطس ١٨٩٨ .

تركيا ، التى لا تضر تبعيتهم لها ، وان كانت تفيد فى تقوية حجة المعارضين للانجليز خصوصا فرنسا والروسيا (٨١) ولم يكن فى مقدور تركيا ان تقاوم انجلترا فى مصر اكثر مما تقاومها آية دولة اخرى . فحين وقعت أزمة فرمان ابريل (١٨٩٢) اظهر الانجليز للمصريين أن نفوذهم اقوى من نفـــوذ الدولة صاحبة السيادة عليهم ، ولم يعد عباس من دار السعادة وكان تـــد زارها (١٨٩٣) ليدعم موقفه ، الا بمدليات الامتياز الفضية لأتباعه (٨٢) .

لم يستمر عباس فى الشـوط حتى نهايته فكان أول من ألقى السلاح ، بل على العكس ، شرع فى التحبب للانجليز ، وقام بزيارة الملكة فكتوريا صيف عام ١٩٠٠ ، وفترت صلته بالحركة الوطنية ، وضعف أمله فى الجلاء ، وتكشف الوثائق كيف أن « طاشيوز » كانت الصخرة التى تحطمت عليها عـــلاقات الخديو بالسلطان ، وجعلته ينحاز الى الانجليز ، حين التمس مساعدتهم ضده ، واتصل بالسفير الانجليزى فى الاستانة فى سبتمبر عام ١٩٠٢ . فأشار عليه أن يتمسك بطلب ارجاع الجزيرة الى حوزته (٨٣) كما استقبل استقبالا وديا فى زيارته للندن عام ١٩٠٣ ولما عاد الى مصر من زيارته للاستانة عام ١٩٠٤ ابلغ مصطفى فهمى بأنه غاضب على مصطفى كامل لطعنه على الحكومة ، وزاد بأنه لا يزال يذكر الحفاوة التى لقيها فى لندن وانه سيزورها كل عـــام . وكان الخديو يقصد ان ينقل ذلك كله الى كرومر عندما يقابله (٨٤) ولما ثارت قضية زواج على يوسف ، ناصر الخديو صحفيه الأثير متحديا مشاعر الرأى العام وعندما احتج عليه مصطفى كامل ، فى اغسطس عام ١٩٠٤ لمعارضته للرأى العام أجاب عباس بأنه لا يبالى (٨٥) .

ربما بدا لنا ان الحركة الوطنية حتى هذه الفترة تسير متحدة فى اهدافها واسلوب عملها ، فرجالها يكتبون فى المؤيد وكلهم ينضوى تحت لواء الجمعيات

---

(٨١) مذكرات محمد فريد ، القسم الأول الكراس (١) ، ص ١٣ .

(٨٢) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، م (١) ، ص ٢٠٢ (ومن انعم عليهم بهذه المدليات قاسم أمين ولطفى السيد وسعد زغلول وحسين عابدين وغيرهم) .

(٨٣) يوسف جاد الله : تطـور الحـركة القومية فى مصر ، دكتوراه غير منشـورة ص ٢٢٧ .

(٨٤) مصطفى النحاس جبر : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ، ص ٨ .

(٨٥) جولد شمدت : الحزب الوطنى المصرى ، ترجمة غير منشورة ، p. 109.

السرية ومعظمهم على علاقة طيبة بالخديو أو يعملون تحت اشرافه ، لكنه ، برغم انتمائهم جميعا لجيل واحد ، وثقافة واحدة تقريبا فان داخل هذا التوحد كانت تكمن أمزجة وانتماءات طبقية ، حتى صلاتهم بالخديو جميعا لم تكن حول هدف واحد ، وكذا مقاومتهم للإحتلال ، وعلاقة هذا بكل منهم ، بل ان مدى الثقة فى الإعتماد على فرنسا أو تركيا لم يكن بدرجة واحدة لديهم ، فلم يكن غريبا ان بدأت تتساقط عوامل الارتباط بهذه واحدة تلو أخرى ، لتفسح المجال لبروز الاتجاهات المختلفة داخل الحركة الوطنية . وقد أخذت الانقسامات تدب فى أوصالها مع خضوع الخديو وقد عبر مصطفى كامل لفريد عن ذلك فأبدى كدره من « عدم وجود ارادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن ، وعدم وجود خطة ثابتة يجرى عليها الكل »(٨٦). والشيخ على يوسف يرفض نشر مقالات مصطفى كامل فى المؤيد (١٨٩٩) بعد أن كان قد عهد اليه فى العام السابق بتحرير الجريدة فى غيابه (٨٧) ولطفى السيد الذى دخل الحياة الوطنية كزعيم تحت رعاية مصطفى كامل . عندما كان يعمل بمساندة الخديو (٨٨) ، ما لبث أن التقى بمحمد عبده وقاسم امين فى جنيف وتأثر بأفكار الشيخ الاصلاحية ، وبعدائه للخديو ، حتى انه عاد من مهمته لبرفع تقريرا للخديو مؤداه « أن مصر لا يمكن ان تستقل الا بجهود أبنائها وأن المصلحة الوطنية تقتضى أن يراس سمو الخديو حركة شاملة للتعليم العام » (٨٩) وكان قد ادخل فى روع لطفى أن الخديو يريد استخدام أعضاء الجمعية السرية خداما لشخصه واعوانا لسلطته (٩٠) وإذا افصح فى رسالة الى مصطفى كامل « بأنهم لايجب ان يكونوا ملتصقين تماما بالخديو لانه اذا سنحت الفرصة له ليصبح عقبة فى سبيل الوطنيين ، عندئذ يصبح من واجبهم الاطاحة بهذه العقبة » (٩١) وانسحب لطفى الى جماعة الشيخ محمد عبده .

* * *

(٨٦) الرافعى ، مصطفى كامل ، ص ٢٤٦ .

(٨٧) المدى : دنشواى ، ص ٤٥ .

(٨٨) Safran, N. : Egypt in Search of Political Community, p. 90.

(٨٩) لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ٣٩ .

(٩٠) عباس العقاد : رجال عرفتهم ، ص ٢٣٠ .

(٩١) Afaf L. Al. Egypt and Cromer, p. 187.

وتبدأ جذور جماعة محمد عبده حول الافغانى ، حيث تلقت دروسه ، ثم انتقلت بعد رحيله ، وبشكل أوسع ليرتفع سوقها ، وتورق بفكر الامام ، فتتحلق حوله ، وتعمل معه فى الوقائع المصرية ، وتلتقى معه فى صالون نازلى فاضل ، الذى يختلف اليه رجال السياسة والوزراء وكبار القوم ، وكانت الأميرة على صلة بالشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وعفيفى باشا وغيرهم كما كانت من انصار الانجليز وعشاقهم ، وكانت تجاهر بذلك (٩٢) وقد لعب صالونها دورا هاما فى تغيير افكار محمد عبده الخاصة بموقفه من الانجليز ، وسمح بصداقته لافلن بيرنج (كرومر) كما ساعد بعض المصريين المتنورين ممن اختلفوا اليه فى الحصول على المراكز فى الادارة المصرية (٩٣) . ثم ظهرت الجماعة فى شكل الجمعية الخيرية الاسلامية عام ١٨٩٢ ، التى الفها محمد عبده مع صديقيه سعد زغلول وحسن عاصم (٩٤) وضمت ابراهيم الهلباوى ، وعبد الخالق ثروت ، وطلعت حرب (٩٥) . كما كان لانضمام محمد عبده لعضوية مجلس شورى القوانين (١٨٩٩) اثره فى اجتذاب عدد من الاعضاء الى جماعته ، فأصبح صديقا لحسن باشا عبد الرازق (٩٦) وعرف فيه محمود باشا سليمان والشيخ عبد الرحيم الدمرداش (٩٧) كما كسبت هذه الجماعة قطاعا من الازهريين حين عرضت لفكرة انشاء مدرسة القضاء الشرعى ، عقب استقالة الامام من الازهر ، حيث التقى جماعة من خلصائه الذين هالهم ما حدث وقد تداولوا فى الامر حتى اوشك الامام أن ينشىء قسما خاصا يختار له صفوة من طلبة الجامع الازهر ليتولى هو اعدادهم للقضاء الشرعى (٩٨) ومع ادراكنا لاهمية هذه المدرسة الا اننا نستطيع أن نلمح

---

(٩٢) مذكرات محمد فريد ، القسم الثانى الكراس (٢) ص ٦٥ — ٦٦) وايضا :
Chirol, V. : op. cit. p. 166.

(٩٣) لاشين : سعد زغلول ، ج ١ ، ص ٧٧ — ٧٨

(٩٤) Ahmed, J. M. : The Intellectual Origins., p. 39.

(٩٥) مذكرات الهلباوى : ص ٤٥ ، هيكل : تراجم مصرية وغربية ، ص ١٩٣ ، وحافظ محمود وآخران : طلعت حرب ، ص ١٣٧

(٩٦) على عبد الرازق : عن مقدمته لآثار مصطفى عبد الرازق ، ص ١٨ ، ويضيف « أن والدى الذى كان يومئذ متطرفا في الرطنية ما لبث ان انجذب نحو سياسة اللاينة وايثار التقريب بين مختلف المذاهب والاغراض » .

(٩٧) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد في مصر ، ص ٢٠٠

(٩٨) على عبد الرازق : مقدمته لكتاب من آثار مصطفى عبد الرازق ، ص ٢٢

الاثر الانجليزى من ورائها ، فقد كانت نظارة الحقانية — طبقا لما ذكره سكلريث — تريد أن تكل الى محمد عبده امر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية(٩٩) . وفى الدرس العالى الخاص الذى كان يعقده محمد عبده كل اسبوع ، كان يلتقى ببعض المفكرين من متخرجى دار العلوم واساتذة المدارس الاميرية وغيرهم من رجال الحكومة والادباء (١٠٠) .

ومن اشهر اعضاء هذه الجماعة قاسم امين الذى رد على الدوق داركور متاثرا برد الامام على رينان ، وقد قرأ عليه فصولا من كتابه « تحرير المرأة »(١٠١) وكذلك فتحى زغلول ، وكان ممن يصطفيهم الامام معه للاصطياف بسوريا ، ويحضر درسه العالى الخاص ، وكان فتحى يومئذ رئيسا لمحكمة مصر الاهلية (١١٢) ولعله قد تاثر فى ترجماته للفكر الاوروبى بتعاليم وتوجيهات استاذه ، وان كان لطفى السيد قد بدأ حياته متطرفا لا انه حين التقى بمحمد عبده فى جنيف وتزامل معه فى الدراسة الصيفية بجامعتها ، ما لبث ان تحول الى الاعتدال ، ولعل تقريره الى الخديوى يوضح اثر الامام فيه ، كما يدل على اقتدائه به حين عاد من منفاه فى سوريا ورفع تقريرا حول اصلاح التعليم الى اللورد كرومر (١٠٢) . وكذلك كان الهلباوى صديقا للامام . تتلمذ معه على الافغانى ، وساعده فى تحرير الوقائع واجتمع به فى صالون الاميرة والجمعية الخيرية (١٠٤) اما طلعت حرب فقد عمل معه فى تأسيس الجمعية الخيرية بجهده وماله ، وكان فى طليعة من رثوه عند وفاته عام ١٩٠٥ (١٠٥) كما امتد تأثير الامام الى الجيل التالى ، وان كان بشكل غير مباشر فى معظم

---

(٩٩) المنار ، المجلد التاسع ٢٤ مايو ١٩٠٦ ، ص ٢٧٦ ، لاشين : المرجع السابق ، ص ١٢٧

(١٠٠) رشيد رضا : تابع الاستاذ الامام ، ج ١ ، ص ٧٧٤ — ٧٧٥ حيث يذكر اسماء معظم اعضاء الجماعة .

(١٠١) ماهر حسن فهمى : قاسم امين ، ص ١٥٨ ، وكان قاسم فى طليعة من رثوا الامام بابلغ رثاء ، انظر رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ ، ج ١ ، ص ١٠٦٣

(١٠٢) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، ص ٧٧٥ ، ٩٩٦

(١٠٣) لطفى السيد : قصة حياتى ، ص ٣٩ ، ورشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٨٩١

(١٠٤) مذكرات الهلباوى ، ص ٨ — ١٥ ، ص ٤٥ — ٤٧ ، الجندى : المرجع السابق ، ص ٢٩ — ٣٠ ، آدمز : المرجع السابق ، ص ٢٠٢

(١٠٥) رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ١٠٦١ — ١٠٦٢ ، وكذلك حافظ محمود واخران : طلعت حرب ، ص ١٣٧

الاجيان ، فنراه يشير على حسن باشا عبد الرازق بالكتب التى يمد بها ابنه مصطفى — طالب الازهر — الذى حفظ كثيرا من رسالة التوحيد وقد أثرت صداقته لحفنى ناصف فى ابنته « ملك » التى فاضت كتاباتها بتعاليم الامام بعد أن تشبعت بروحه واتخذته مثلا اعلى (١٠٦) وأصبح ودعوته موضع اعجاب محمد حسين هيكل ، وقد دعاه ذلك الى قراءة كتابه « الاسلام والنصرانية » فتأثر بطريقة الشيخ وأسلوبه (١٠٧) وهكذا يبدو تأثير الامام الذي امتد من جيل معاصريه وأصدقائه الى الجيل الثانى ، كما امتد ليشمل أكثر من مجال ، فى الصحف والجمعيات والصالونات والمؤسسات النيابية والازهر ، ومن خلال ذلك كله اتسعت دائرة مؤيديه والمتأثرين بأفكاره ، سواء فيما يتعلق بمواقفه وعلاقاته السياسية ، أو منهاجه فى الاصلاح (١٠٨).

ولم يكن محمد عبده من أنصار الثورة ، ومواقفه منها معروفة بما فيه الكفاية فقد ناصرها يوم أن انضم الجميع اليها حتى الازهريون الاصلاحيون بل والجراكسة أنفسهم ، وحين تحول عرابى الى قائد لمصر كلها ، وباتت السلطة كلها فى يد العرابيين ، حينئذ أصبح الشيخ وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من اتباع عرابى (١٠٩) وكان ميالا الى التبصر والمسالمة ، فحين وقع الخلاف حول مناقشة مجلس شورى النواب للميزانية فى وزارة شريف اتفق معه بلنت على أن يناقشا وفدا من الاعضاء ، ويعرضا النتائج المحتملة للمقاومة وهى التدخل المسلح « لكنهم تشبثوا بالرغم من مساعدة عبده لى » (١١٠) وكان يقرر فى كل مناسبة ان علينا أن نهتم بالتربية والتعليم بضع سنين وان نحمل الحكومة على المعدل بما نستطيع وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الاهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات وليس

---

(١٠٦) مجد الدين حفنى ناصف : عن مقدمته لآثار باحثة البادية ، ص ٤٣

(١٠٧) محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ، ج ١ ، ص ٢٨ — ٢٩.

(١٠٨) نقرأ عند حافظ ابراهيم ، ليالى سطيح ، ص ١٦٩ — ١٧٠ وصفا لتلاميذ الامام يقول فيه :

« فمن أى تلاميذ الامام تكون ؟ فقد سمعنا انهم فريقان : فريق اختصه بسياسته وفريق اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ونبأ لهما بالطالع السعيد ».

(١٠٩) Blunt, W. S. : Secret History. : pp. 493 - 494.

وكذلك رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٢٧٧.

(١١٠) Blunt, W. S. : op. cit. pp. 193 - 195.

من المصلحة أن تفاجيء البلاد بأمر لم تستعد له » (١١١) ويدلنا موقف الهلباوى ازاء العرابيين والانجليز على مدى انعكاس مواقف محمد عبده على جماعته. فقد رفض الهلباوى تقريض العرابيين له فى المجلس المخصوص ، وكان فى كل الحادثه ينتقد سياستهم حتى انهم بعد توليهم السلطة حاكموه فى اغسطس عام ١٨٨٢ ، وحكموا عليه بالاشغال الشاقة ثمان سنوات ، قضى شطرا منها الى ان دخل الجيش الانجليزى القاهرة واخلى سبيله (١١٢) .

واذا كان محمد عبده قد عرف التطرف بتأثير الافغانى ، فقد تضاءل ذلك فيه ، واذا كان قد اختبر تطرفه بالانضمام الى الثورة ، فانه نفى وعاد أكثر اقتناعا بعدم جدوى العنف ، كما ازداد اقتناعا بأسلوب الاعتدال ، والتدرج اساسا للاصلاح ، ولم يعد دوره العملى فى السياسة اكثر من كونه عضوا فى شورى القوانين عام ١٨٩٩ (١١٣) وقد اصبح أكثر مسالمة كما اشيع أن كرومر قد تدخل للعفو عنه واعاده من منفاه ، حتى بات يقدر حريته حق قدرها ، وما برح يدعو الى عقيدته فى الدين ويطالب باتمام اصلاح اللغة «اما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لاننى عرفت أن ثمرة تجنيها من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال ، فهذا الغرس هو الذى ينبغى ان يعنى به الآن ... » (١١٤) وكان على محمد عبده أن ينظر فى علاقاته او أن يصوغها من جديد على ضوء ما حدث خاصة بالنسبة لسلطات الاحتلال وخديوى البلاد .

فبالنسبة لعلاقته بكرومر ، فقد قيل انه عفى عنه بشفاعة بعض أصحاب النفوذ ومنهم الوكالة البريطانية ، أو اللورد شخصيا (١١٥) وان كان كرومر

---

(١١١) مذكرات الامام محمد عبده ، ص ١٢٤ ، اعداد طاهر الطناحى .

(١١٢) مذكرات ابراهيم الهلباوى : ص ١٧ — ٢٢ ، ويضيف ص ٢٢ « ان فرحى بهزيمة العرابيين وتمنى انتصار الجيش الانجليزى كان مبعثها أننى كنت مخدوعا فى ذلك الوقت فى نوايا الانجليز ، ومع انخداعى بهذه الوعود مازلت انحو باللائمة على نفسى كيف تمنيت خذلان جيش الوطن على عيوبه ونقصه ، ورغبت فى ظفر الفاتح الاجنبى ... » .

(١١٣) حول منهج محمد عبده الاصلاحى انظر :
Ahmed. J. M. : op. cit. p. 36 - Safran, op , cit, p, 63,
حوراني : الفكر العربى ، ص ١٩٣

(١١٤) آدمز : الاسلام والتجديد ، ص ٦٠ ، ومذكرات الامام ص ٢٠

(١١٥) آدمز : المرجع السابق ، ص ٦٣ ، ايضا حوراني : الفكر العربى ص ١٦٧

فى تقريره لعام ١٩٠٥ قد ذكر ان الخديوى السابق قد عفى عنه (١١٦) ثم عاد فى « مصر الحديثة » ليقول : « اننى لما اتيت مصر عام ١٨٨٣ كان الشيخ يمر بضائقة ، ولكن توفيق الطيب المعدن ، قد عفا عنه بضغط الانجليز وجعله قاضيا ، ولسنوات عديدة منحته كل ما فى قوتى من تشجيع » (١١٧) وقد صرح اللورد بأن يظل الشيخ مفتيا فى مصر ما ظلت بريطانيا العظمى محتلة لها « وانه سيظل المفتى حتى يموت » وحين اراد المفتى أن يزور الاستانة ، ولم يكن كرومر يريد ذلك ، وافق على أن يعرف هذه العاصمة القديمة ، والظاهر ان اللورد كان يعتقد انه لاشىء يقطع امل الاستاذ من حياة الدولة الا زيارته للاستانة (١١٨) وبالفعل زارها عام ١٩٠١ وكانت معه توصية من اللورد لسفير انجلترا فيها خشية الطوارىء (١١٩) ، وكان الشيخ حريصا فى علاقته مع كرومر ، على مصالح أصدقائه ، فحين عزم كرومر على الغاء النيابة العامة من المحاكم الأهلية واحالة اعمالها الى القضاء ، زاره الشيخ واقنعه بالعدول عن ذلك ، كما تدخل لديه لانقاذ نفر من الاعيان اتهموا فى قضية تعذيب ، ولولا أن للامام منزلة كبيرة عند اللورد لجر هذا الحادث الى نتائج سيئة (١٢٠) وحين اقترح بلنت على كرومر تشكيل حكومة من الفلاحين المصريين — يقصد الاعيان — قام باستشارة محمد عبده فى الأسماء التى يقترحها على اللورد ، وكان ضمنها أمين فكرى وسعد زغلول وأحمد محمود وأحمد حشمت ، والشيخ عبده نفسه ولكن كرومر اضاع هذه الفرصة (١٢١) وقد عبر الشيخ عن رأيه فى الاحتلال وهو لايزال بعد فى سنوات المنفى — وربما كان قد سمع أن هناك مشاورات انجليزية تجرى لاستصدار العفو عنه — حين سأله رشيد رضا عن الاحتلال فقال : « انه مسألة اوروبية لا شأن لنا فيها وانما الشأن للدول الاوروبية ذات المصالح فى مصر مع السلطان ، فاذا اتفقت هذه الدول على الجلاء كان ، وهو ما لا دليل عليه الآن ... »(١٢٢).

---

(١١٦) Egypt ; No. 1, 1905, p. 15.

(١١٧) Cromer, Modern Egypt., pp. 598 - 600.

(١١٨) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ، ج ١ ، ص ٨٤٧ — ٨٤٨

(١١٩) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، م (١) ، ص ٣٧٩

(١٢٠) مذكرات الهلباوى ، ص ٤٨ — ٤٩

(١٢١) Blunt, W. S. : My Diaries, pp. 48 - 49.

(١٢٢) المنار ، المجلد التاسع فى ٢٤ مايو ١٩٠٦ ، ص ٢٧٦ ويضيف : « وقد قالته اوربا كلمتها بلسان اتفاق ١٩٠٤ فلماذا لا نشتغل بما يغنينا وبما فى قدرتنا » .

وفى رسالتين من الشيخ الى بلنت عقب توقيع الوفاق الودى اقترح تشكيل مجلس شورى يضم بعض كبار الانجليز ... كما يرى أن من الضروريات لحسن الادارة المصرية قيام الحكومة الانجليزية بضمان النظام فى البلاد وكفالته فتراقب استتبابه ، فتحافظ على استمراره ، وعلى الدستور الذى يمنح لمصر كما يجوز تعيين انجليز كمفتشين فى الوظائف الصناعية التى تحتاج الى مهارات خاصة ، وان يبقى السردار وبعض الضباط الانجليز فى الجيش المصرى ويشغل المصريون ما بقى من وظائف الجيش ، واذا فرض وقامت بعض صعوبات ورأت الحكومة الانجليزية وجود بعض قواد انجليز فيه فلا ضرر ... » (١٢٣) .

وقد كان لعلاقات محمد عبده برجال الاحتلال ، الى جانب نفور الشيخ من اسرة محمد على (١٢٤) وحرصه على الا يتدخل الخديوى فى المؤسسات الدينية ومنها الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية كما كان لانشاء كرومر للمجلس الاعلى للأوقاف بعضوية محمد عبده ، للحد من تدخل الخديوى فى الأمور المالية أثره فى استحكام الخلاف بين محمد عبده وعباس . فاتخذت محاربة الخديوى له عدة وسائل منها تحريض العلماء عليه ، وعلى فتاويه ، واتهامه بالوهابية والزندقة ، وقد حاول عزله من منصب الافتاء ومن ادارة الأزهر لولا تدخل كرومر (١٢٥) كما أوحى الخديوى لصحيفة « الظاهر » باسقاط نفوذه الدينى واضعاف حزبه ، وقد ردت الصحف الوطنية عليها فيما عدا « اللواء » (١٢٦) وكان الشيخ يبادله العداء ويذكر دائما الا أمل فى الخديوى بشأن الجلاء عن مصر ، ويتحدث عن استبداده ، وأنه لا يثق فى قوته أو قدرته ، وان الحكومة لا يجب ان تعتمد عليه كلما كان ذلك ممكنا وانها يجب تؤيد ببعض النظم الدستورية (١٢٧) وفى رسالتيه الشهيرتين لبلنت ذكر انه يجب الا يكون لجناب الخديوى اى سلطة تخوله التدخل فى أعمال الهيئات

---

(١٢٣) رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٨٩٩ — ٩٠١ نص الخطابين .

(١٢٤) وقد ذكر مرة فى قتل اسماعيل ، كما كتب مقالا مستفيضا عن محمد على وصفه بانه خرب مصر ، واستطاع أن يميت بدلا من أن يحيى ، وقد تهكم مصر ، وأعدم حياتها .
انظر نص المقال : مذكرات الامام محمد عبده ، ص ٣١ — ٤٤

(١٢٥) احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، م (٢) ، ص ٣٩

(١٢٦) ابراهيم عبده : تطور الصحافة الوطنية ، ص ١٧١

(١٢٧) Blunt, W. S., My Diaries, p. 214.

التنفيذية للنظارات ولا ادارة الاوقاف والأزهر ولا المحاكم الشرعية ، ويجب الا تدع انجلترا الدستور عرضة لتدخل الخديويين (١٢٨) .

واذا ما ربطنا بين رسالتى الشيخ الى بلنت حول استبداد الخديوى وضرورة اشتراك الانجليز فى الحكومة ، بتاريخ توقيع الوفاق الودى (١٩٠٤) امكننا ان نفهم ان محمد عبده قد تأكد من قدرة الانجليز على حمايته بشكل قاطع ودائم ، ويئس تماما من الخديوى ، كما تأكد من عدم قدرته على تحديه ، وقد تحرر الانجليز بالوفاق ، من اكبر مخاوفهم الدولية ، ومن ثم تحدث بصراحة شديدة الى صديقه عما يكنه قلبه للخديوى والانجليز . وقد بلغ خصام الشيخ والخديوى مداه عام ١٩٠٤ وكانت نهايته ان استقال ، مع الشيخ سليمان ، من مجلس ادارة الازهر بعد تعيين الشيخ الشربينى فى مارس ١٩٠٥ بعدة أيام ، بل لم ينته حقد الخديوى عليه بعد وفاته ، فغضب على أحمد شفيق لسيره فى جنازته كما سبق له أن هدد بفصل بعض حاشيته ممن كانوا على صلة بمجالس الامام ، وانب فتحى زغلول لاشتراكه فى عمل تذكار لمحمد عبده بعد وفاته (١٢٩)

خلف محمد عبده اتجاها فى السياسة المصرية ، اتضحت ملامحه وعلاقاته وتشربه اتباعه واشياعه ، وقد لقوا اهتماما واضحا من اللورد كرومر واشاد بهم فى تقاريره وكتاباته . خاصة فى تقريريه لعامى ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ . كما اشاد باتجاهاتهم الإصلاحية التى لا تزعزع اركان الدين الاسلامى وبعدهم عن فكرة الجامعة الاسلامية ، كما حبذ فيهم اعتدالهم ، فى مذهبى الإصلاح والوطنية ، حيث يقفون موقفا وسطا بين المسلمين المحافظين المتزمتين من جهة ، والمسلمين الذين تفرنجوا ولم يعودوا يحملون من الاسلام غير اسمه من جهة اخرى ، فهم لا يقلون فى وطنيتهم عن اولئك الذين تلقبوا بالحزب الوطنى ، ورغم أنهم فئة صغيرة الا أنها متزايدة ، وقد سماهم « أتباع المفتى السابق الشيخ محمد عبده » على سبيل الاختصار (١٣٠) وقد رأى كرومر أنهم امل القومية المصرية فى معناها العملى ، ومعقد الرجاء فى التعاون مع

---

(١٢٨) أنظر الرسالتين فى رشيد رضا : المرجع السابق ، ص ٨٩٩ — ٩٠١.

(١٢٩) احمد شفيق : المرجع السابق ص ٧١ — ٧٣ . ومذكرات سعد ، ك ٦ ص ٢٨٥

(١٣٠) Egypt, No., 1, 1905, pp. 15 - 16, and 1906, p. 8.

الأوروبيين وذلك « لأن لهم أفكارهم ومعتقداتهم وأسلوبهم الخاص فى العمل والحياة » (١٣١) وقد أوضح كرومر أن الأهمية السياسية لمحمد عبده تكمن فى قدرته على خلق مدرسة للفكر فى مصر تتشابه كثيرا مع تلك المدرسة التى انشأها السيد أحمد مؤسس كلية عليكرة فى الهند ، وهدفها تزكية منهج الاسلام فى عين المسلم الحديث ، انهم بمثابة « جيرونده » الحركة الوطنية المصرية وجديرون بكل تشجيع وتأييد يمكن امدادهم به . فهم الحلفاء الطبيعيون للمضلع الاوروبى .

وحبب أسلوبهم التدريجى فى تنفيذ برنامجهم لتحقيق استقلال ذاتى لمصر ، فى أعين المصريين ، وتعشم أن يتبعوا السبيل القويم الذى أرشد اليه الشيخ (١٣٢) وقد اعترف كرومر عام ١٩٠٩ بأنه أعطاهم قدرا من التشجيع باعتبارهم معتدلين ومناوئين للمتطرفين (١٣٣) وقد تمثل هذا التشجيع فى تعيين واحد منهم وهو سعد زغلول (١٩٠٦) فى وظيفة ناظر للمعارف واعتبر ذلك تجربة ينبغى ان تعطى مزيدا من الاهتمام ، فاذا ما نجحت ، وهذا ما كان يأمل ويعتقد ، انتقل الى خطوة تالية فى هذا السبيل ، وان لم تنجح فليس أمامه الا أن يعهد الى الاوروبيين بالاصلاح (١٣٤) .

ومع كل ما سبق يدرك كرومر نقطة الضعف فى آراء الشيخ محمد عبده وشيعته فيراها « فى الحقيقة خيالية وغير عملية ، ومع ذلك كان وطنيا مصريا صادقا ، وربما كان من حظ الوطنية المصرية أن يوجد كثيرون على شاكلته ، ولكن اذا اخذنا فى الاعتبار امكانية اعتبارهم ساسة المستقبل ، فاننا نجد نقاط ضعف فى نسيج محمد عبده وأولئك الذين اتبعوا تعاليمه » (١٣٥) .

* * *

(١٣١) Alexander, J. : The Truth about Egypt, p. 81, and, Ahmed, op. cit. p. 44.

(١٣٢) Cromer : Modern Egypt, p. 600.

(١٣٣) نقلا عن اوراق كرومر : Afaf L. Al-S. op. cit., p. 177.

(١٣٤) Egypt, No. 1, 1906, p. 8.

(١٣٥) Cromer : op. cit. p. 599.

وهكذا قدر للحركة الوطنية أن تسير فى اكثر من اتجاه ، بسبب عديد من العوامل افضت الى قيام تكوينات عام ١٩٠٧ الحزبية ، بتحديداتها واتجاهاتها واسلوبها ، تطرفا واعتدالا فى علاقاتها بالاحتلال والخديوى وتركيا وحتى فيما بينها ، وهذه العوامل فى مجموعها هى التى افضت الى نمو الحركة الوطنية ، سواء فيما يتعلق ببروز طبقة الأعيان وابنائهم من الموظفين وذوى المهن الحرة ، الطموحين الى العمل السياسى ، أو ما يتعلق باثارة عداء قطاعات كبيرة من الطبقة الوسطى نتيجة ما عرف بمظالم الاحتلال ، وما اثاره جنوده بين الاهالى افضى الى انضمام قطاعات من الشعب الى صفوف الحركة الوطنية ، بالاضافة الى انضمام الخديوى عباس حلمى اليها ، ومنحه تأييدا للحركة الوليدة ثم نكوصه وانخذاله ، كل ذلك الى جانب ظهور تركيا ، صاحبة السيادة ، بمظهر غير المكترث لما يحدث فى مصر وقد شهدت الاعوام من ١٨٩٢ وحتى ١٩٠٦ تغيرا كبيرا ازاء تركيا ، فلا عجب أن نمت الحركة بالشكل الذى ظهرت به ، كما أن الحوادث « قريبة العهد » التى بدت مكثفة ومتلاحقة، خلال السنوات الست الاولى للقرن العشرين قد أثرت تأثيرا عميقا فى ابراز هذه الاتجاهات ، وبالتالى تكوينات الأحزاب واعلانها عن نفسها عام ١٩٠٧، وان لم تخلقها خلقا .

وتبدو لنا ملامح السنوات القريبة فى ملاحظة أكثر من ظاهرة تغيير ، فقد شهدت بدايتها الاضرابات الطلابية والهاتفة ضد سيطرة الانجليز على التعليم والمطالبة بالدستور ، وتشكيل الطلاب للجمعيات السرية والعلنية ، والكتابة فى الصحف ، وتكوين نادى المدارس العليا ليصبح مع مدرسة الحقوق خليتى الجيل الجديد للاشتغال بالسياسة ، وكان اضراب طلاب الحقوق (١٩٠٦) تعبيرا صريحا عن اشتغال الطلاب بالعمل السياسى ، واضافة دماء جديدة لتيار الحركة النامى (١٣٦) . كما اضيف للحركة أسلوب جديد ، وان كان وليدا وعلى يد غير مصرية ولكنه بين ظهرانيهم ، وهو أسلوب الاعتصابات ، واعتصاب لفاف السجائر عام ١٩٠١ (١٣٧) لوح للحركة

---

(١٣٦) انظر : Afaf L. Al. : op. cit. p. 169.

وفتحى رضوان : مصطفى كامل ، ص ٢٠٧ ، ومذكرات عباس الثانى ، المصرى ٤٨٥٣ فى أول يونيو ١٩٥١

(١٣٧) تقرير كرومر لعام ١٩٠٤ ، ترجمة المقطم ، ص ٨٨

الوطنية بأسلوب جديد ، كما ضم اليها ، وان كان بشكل غير فعال ، وقتئذ ، فئات من العمال . وهناك عدة حوادث جرت بين جند الاحتلال والوطنيين أدت الى انتفاضات الفلاحين وفئات من المدن ، منها حادث بحارة الأسطول فى الاسكندرية ، وحادث الاعتداء على جند الاحتلال (١٨٩٥) ، وحادث قليوب (١٨٩٧) . وواقعة صيد الثعالب بين شمس (١٩٠١) . وقد دفعت هذه الحوادث بفئات الحرفيين وصغار العمال والفلاحين الى أحضان الحركة الوطنية (١٣٨) .. وكذلك الحوادث التى اوردها كرومر بتقريره لعام ١٩٠٥ والتى وقعت بين الوطنيين والأجانب ، وبرغم تصويره لها على انها فردية ، وتحديده لاطارها بالمدن التى بها يونانيين فقط (١٣٩) الا انه راى ان الحوادث الطفيفة والتى قام بها رعاع من الوطنيين تدعو للحذر فقد تؤدى الى نتائج ليست فى الحسبان . وقد بلغت هذه المتاعب بالنسبة لسلطات الاحتلال حدا جعلهم يضغطون على كرومر لطلب زيادة الحامية البريطانية فى ذلك الوقت (١٤٠) كما ساعد الوفاق الودى (١٩٠٤) على تهيئة المناخ الحزبى ، حيث تخلصت بريطانيا من العراقيل السياسية ، وشددت قبضتها على البلاد ، وأدى الى يأس قطاع من الوطنيين من الاستعانة بفرنسا ، واصبح أصدقاء مصطفى كامل « اما اصدقاء للانجليز واما يائسين » (١٤١) وكذا برز اتجاه محمد عبده وجماعة بشكل اكثر تحديدا بعد الوفاق ، وقد عبر عنه فى رسالتيه الى بلنت .

وقد شهد عام ١٩٠٦ حادثين على جانب كبير من الاهمية من حيث ابراز الحركة الوطنية فى ثوب حزبى اولهما حادث طابة ، الذى بلغ ذروته فى مايو ، وثانيهما حادث دنشواى فى يونيو من نفس العام ، وفى الاول بدأ ان السلطان العثمانى يمارس حقوق السيادة باقتطاع جزء من أرضه فى مصر ، وبدت

---

(١٣٨) المسدى : دنشواى ص ١٥ — ٢٤ ، تفاصيل هذه الحوادث نقلا عن الوثائق البريطانية ونصوص الوثائق بالملاحق .

(١٣٩) Egypt, No. 1, 1905, p. 8.

(١٤٠) FO. 407, No. 96, part LXIII, 4 Dece. 1905 No. 193.

(١٤١) انظر : Cromer, Abbas II, p. X.

ومصطفى كامل : رسائل مصرية — فرنسية ، ص ١٣٧

انجلترا ، كما لو كانت تدافع عن ممتلكات مصر ، ووقف القطاع الكبير من الوطنيين فى صف الخليفة واستنكروا دور الحامى الذى لعبته بريطانيا (١٤١م) لكن فريقا آخر وهم جماعة محمد عبده ، كانوا فى جانب آخر ، وكانوا على شكوك فى صداقة مصطفى كامل وجماعته للسلطان ، من ثم قرروا اصدار جريدة تنطق برأيهم (١٤٢) وحين تراجعت تركيا وعينت حدود مصر الشرقية كما شاءت انجلترا ، أيدت صحيفتا اللواء والمؤيد هذا التراجع ووصفتاه بالكياسة (١٤٣) فى الوقت الذى شعرت فيه سلطات الاحتلال بتزايد العداء نحوها فى مصر وتعاطف المصريين مع السلطان ، من ثم واصلت جهودها نحو اجتذاب كبار الملاك وتلاميذ الشيخ محمد عبده (١٤٤) . وقد لا يبدو غريبا أن يجتمع هؤلاء بعد شهر ونصف من الحادث ليتحدثوا فى شأن اصدار جريدتهم.

وبعد أقل من شهر وقع حادث دنشواى الذى اعترف كرومر بأن أحكامه كانت غير عادلة (١٤٥) وقد استغله مصطفى كامل فى فضح السياسة الكرومرية ، وليس من قبيل الصدفة أن يكون ثلاثة من شيعة الامام هم ابطال محاكمة دنشواى ؛ قضاة وجلادين ومحامين ، فلطفى السيد الذى مثل فى هيئة الدفاع ، رغم محاولاته فى توضيح أن الهجوم على الضباط الانجليز كان مخض صدفة وأن الجريمة بنت لحظتها (١٤٦) الا أن المحكمة اثرت بجرم الفلاحين ورفضت طلب هيئة الدفاع باستخدام الرافة ، ولعل لطفى قد أحس بضعف دفاعه فتجاهله فى مذكراته ، كما أن « فندلى » القائم بعمل المعتمد البريطانى فى مصر — قد شهد له بالامتياز (١٤٧) وكان أحمد فتحى زغلول عضوا بالمحكمة ، وهو الذى كتب حيثيات الحكم التى علق عليها القاضى مارشال بأنها من « أضعف ما قرأت » ، وأنه أراد أن يرضى الانجليز لأنه

(١٤١ م) حول الحادث انظر يونان لبيب : أزمة العتبة المعروفة بحادثة طابة ١٩٠٦، مجلة الجمعية التاريخية ، مجلد ١٢ ، ص ٢٤٧ — ٢٩٨ ، وكذا المسدى : دنشواى ، ص ٦٢

(١٤٢) Afaf L. Al. : Egypt and Cromer, p. 167.

(١٤٣) هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ، ج ١ ، ص ٢٦ ويضيف : « حينئذ دفعتنى الدهشة الى البحث عن الاتجاه الصحيح الذى يجب الاخذ به عن اقتناع وبينة » .

(١٤٤) المسدى : دنشواى ، ص ٦٥

(١٤٥) Cromer : Abbas II, pp. IX.

(١٤٦) Afaf L. Al. : op. cit. p. 171.

(١٤٧) المؤيد ٤٩٧٨ فى ٢٦ سبتمبر ١٩٠٦

بقي مدة طويلة رئيسا للمحكمة الابتدائية ويريد ان يرقى الى مجيكمة الاستئناف (١٤٨) ، أما الثالث فكان ابراهيم الهلباوى ، ممثل النائب العمومي في التحقيق ، وقد حادثه محمد محمود سكرتير مستشار الداخلية وقتئذ في أمر انتدابه (١٤٩) وقبل على الفور ، وعلى مدى ثلاث ساعات طالب فيها القضاة ان يرفعوا من قلوبهم كل رحمة ، واشاد بما قدمه الاحتلال لمصر ، وبني ادعاءه على أن الضباط صادقون بالفطرة أما الاهالي فكاذبون بالفطرة أيضا (١٥٠) ، وكان يود ان يكافئه الانجليز مثلما رقى فتحي باشا الى وكالة الحقانية ، لكنه لم يرق ، مما اثار حسرته وحنقه (١٥١) .

وقد شكلت الأزمة الاقتصادية التى أمسكت بخناق البلاد عام ١٩٠٧ عاملا آخر فقد بدت بوادرها منذ عام ١٩٠٥ حين ارتفعت اسعار الاطيان ارتفاعا كبيرا وحدث تضخم مالى وتهافت الناس على استثمار أموالهم فى الشركات ، وارتفعت اسعار العقارات والاراضى ، وما أعقب ذلك من هبوط كبير ادي الى افلاس بعض المؤسسات المالية — الى جانب الخراب المالى الذى حل بكثير من ملاك الاراضى (١٥٢) فدفعت هذه الأحداث الأعيان إلى المزيد من التماسك حرصا على مصلحتهم ، ودفعت بهم بعيدا عن الشباب المتطرف ، وقد قيل حينذاك أن الأحزاب التى تكونت بمصر غايتها التفاهم مع الانجليز لرتق الفتق الذى احدثه ظهور الحزب الوطنى (١٥٣) .

وبالفعل شهد عام ١٩٠٧ مولد الأحزاب المصرية ، الامة ، الوطنى ، الاصلاح ، والعديد من الاحزاب الصغيرة التى بلغت تسعة برغم ان التسمية لا تتناسب مع محتواها أو تكوينها أو حتى وضع جماعتها السياسى

---

(١٤٨) المسدى : دنشواى ، ص ٨٨ — ٨٩

(١٤٩) مذكرات الهلباوى ، ص ٧٧

(١٥٠) صلاح عيسى : حكايات من مصر ، ٢١٣ — ٢١٤

(١٥١) مذكرات الهلباوى ، ص ٨٠ فيذكر « وكانت نفسى قد حدثتنى أن أتخلى عن المحاماة فالتحق بوظيفة في القضاء قبل دنشواى « ويستمر » أما الهلباوى فقد بقى قائما على تذميه فى مكتبه كما كان يعمل فيه قبل هذه القضية » .

(١٥٢) انظر : يونان لبيب : الحياة الحزبية ، ص ٢٠ و
وكذلك : Egypt. No., 1, 1905, p. 17.

(١٥٣) قسطاكى الياس : تاريخ تكوين الصحف المصرية ، ص ١٤٥ وكذلك :
Ahmed, J. M., op. cit. p. 63.

والاجتماعى ، وقد بلغت حمى الأحزاب حدا جعل كل مجموعة من الأفراد يلتفون حول مصلحة فئوية أو مهنية يقيمون حزبا (١٥٤) ، ولعل هذا يسوقنا الى التساؤل عن معنى الحزبية والى أى مدى ينطبق على أحزاب مصر عام ١٩٠٧ ، الحزب مجموع من الافراد يربطهم مبدأ سياسى ، ولهم نظام معين ، وعليه فهم متحدون فى شئون الاقتراع وغايتهم القبض على زمام الدولة ، ولذلك تراهم اشبه بجمعية أو شركة يتعاون أفرادها لنيل السيادة وبلوغ تلك السياسة بواسطة السيطرة على الحكم بالوسائل الدستورية والمفروض أن تدمر مصالح الأمة وتناهض الحكومة بالقلم أو اللسان أو السيف ويتوقف نجاح الحزب على الحيوية فى مبادئه ونظاماته (١٥٥) .

ومصر قبل عام ١٩٠٧ لم تشهد من فكرة الحزبية سوى أن هناك اتجاها وطنيا بهدف التخلص من السيطرة الاجنبية والاحتلال ، وقد كان الحزب الوطنى القديم يسمى حزبا لأن غير الوطنيين من أتراك وجركس ، يمثلون اتجاها آخر ، ومن منطق ان هناك برنامجا صاغه وسماه ونشره فى التيمس المستر بلنت (١٥٦) وكان الحزب الوطنى الحر الذى الفه الافغانى قبل ذلك اقرب الى الجمعية السرية منه الى الحزب وكذا جمعية مصر الفتاة التى اسسها بالاسكندرية مع نفر من الشوام (١٥٧) وقد فكر لطيف سليم فى تكوين حزب للدفاع عن القضية المصرية فى البلاد الاوربية عرف « بحزب الاستقلال » الا أن هذا الحزب قد دب فيه الضعف ولم يستطع القيام بشىء (١٥٨) ، ونشأت بعد ذلك الجمعيات السرية التى لا تعدو أن تكون اسلوبا للعمل أكثر من كونها دفاعا عن فكرة أو اتجاه ذلك ان الهدف فى النهاية كان واحدا ، وعلى ذلك فالتيارات التى نشأت بمصر فى شكل جمعيات سرية أو علنية لا تعتبر احزابا بالمعنى الشامل بقدر ما تعبر عن اتجاه عام ، أو

---

(١٥٤) ننقرأ عن « حزب الدفاع عن حقوق أهالى الفكرية مركز ابو قرقاص » ثم نقرأ عن حزب تضامن العمال في وادى النيل أنظر : الاخبار ، عدد ١٥٧ في ١٥ يوليو ١٩٠٨

(١٥٥) البرت شتير ، الدستور المصرى والحكم النيابى ، ص ٤٧٨ ، يونان : المرجع السابق ، ص ٢١ ، المنار ، مجلد ١٦ ديسمبر ١٩٠٧ ، ص ١٤١

(١٥٦) مذكرات عرابى : ج ١ ، ص ١١٦ — ١١٨ ، وكذا :
Blunt, W S : Secret History pp. 173-174.

(١٥٧) مذكرات محمد عبده ، ص ٥١

(١٥٨) أحمد زشاد : مصطفى كامل ، ص ٤٥

شعور شعبى . وحين برزت للوجود احزاب عام ١٩٠٧ فانها برزت مرتبطة باشخاص مؤلفيها وتدور حولهم ، كما بدت كجماعات متأثرة بهؤلاء ، ممن جمعوا القليل من التابعين ، كما أن أفكارهم قد وجدت اثرا ضئيلا خـــارج نطاق جماعتهم ، وهذا يوضح لماذا لم تصدر قوائم من المرشحين للانتخابات لمختلف المنظمات النيابية (١٥٩) ؛ لقد كانت أقرب الى الأصول الحزبية منها الى الاحزاب المنظمة تنظيما دقيقا وتمتلك أدوات مؤثرة ، حتى اذا سئل العضو فى واحد منها لماذا اختاره فانه يجيب بسبب من الأسباب العامة التى تدل على اختلاف النظر والمزاج (١٦٠) ولم يكن من المستطاع أن تقوم الأحزاب يومئذ على اسس ومبادىء مجردة ، فذلك يحدث فى الأمم الحرة ، ومصر كانت خاضعة لسيادة تركيا محتـــلة بالانجليز وللامتيازات الاجنبية اثر فى توجيه اقتصادياتها واجتماعياتها ، فكان من الطبيعى أن تتـــأثر الأحزاب بهـــذه الحال (١٦١) .

مما سبق يتضح ان الاحزاب المصرية (١٩٠٧ ــ ١٩١٤) تعد مرحلة متوسطة بين تلك الأشكال من التجمعات التى سميت أحزابا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وتلك الاحزاب التى ظهرت بشكل منظم بالمعنى الحديث ، بعد ثورة ١٩١٩ . وان تكن كلمة أحزاب تعد فضفاضة بعض الشىء ، الا انهـــا بالفعل اقرب الى التسمية منها الى اى تسمية أخرى ، صحيح أنها ليست منظمة فى شكل كوادر وتفتقد الى القواعد الشعبية أو اللجان التنظيمية ــ وان كان هذا لا ينطبق على الحزب الوطنى ــ كما انها لم تخض انتخابات برلمانية تشـــكل بموجبها الحكومات أو تؤثر بشكل مباشر وفعال « كجماعات حزبية » داخل الهيئات النيابية القائمة ، لكننا لا نستطيع تجاهل ما لها من مشخصات الاحزاب السياسية ، مما يجعلها أقرب الى التسمية ، وهـــذه المشخصات هى اجتماع آراء فئة من الناس ، اتصلوا مصلحيا أو طبقيا بمبادىء معينـــة ، أعلنت فى شكل برنامج محدد واضح منشور ، أيا كانت درجة الالتزام به ، ثم هى تمتلك آداة للتعبير عن مبادئها ،

---

(١٥٩) لاشين ، المرجع السابق ، ص ٨٣ و :
Landau, J. : Parliaments and Parties. p. 137.

(١٦٠) عباس العقاد : قصة الاحزاب مقال بأخبار اليوم عدد ١٠٦ في ١٦ نوفمبر ١٩٤٦

(١٦١) هيكل : المرجع السابق ، ص ١٩ ــ ٢٠

وان كانت فى بعض الأحيان قد أصدرت صحفا قبل أن تعلن عن نفسها ، واخيرا ظهر اثرها داخل المؤسسات النيابية ، وان بشكل غير متكامل أو مؤثر كلية ، لكنها فى كل الأحوال ، كانت تتخذ الموقف وان بغير ترتيب سابق ، طبقا لما اعلنته ولما يخدم مصلحتها . وبتحليل نشأة حزب الأمة وصدور جريدته ، واعلان تنظيم الحزب ومبادئه تتضح صورة الحزبية فى مصر فى تلك الفترة .

* * *